بلاغة الجمهور

مفاهيم وتطبيقات

تحرير وتقديم: د. صلاح حسن حاوي د. عبد الوهاب صدّيقي

شهريار

تحرير وتقديم
د.صلاح حسن حاوي
د.عبدالوهاب صدّيقي

بلاغة الجمهور
مفاهيم وتطبيقات

شهريار

شهريار.. حكاية في كتاب

يسعى كتاب "بلاغة الجمهور" إلى تقديم إضافة جذرية إلى البلاغة العربية المعاصرة؛ إذ يستكشف آفاقًا جديدة للعلاقة بين البلاغة ونظريات التلقي، والتواصل، وتحليل الخطاب. كما يُطوّر مداخل منهجية، وتطبيقات دقيقة مبسطة، لدراسة كمٍّ وافر من الاستجابات الجماهيرية على أعمال روائية، وسير شعبية، وخطب سياسية، ووعظ ديني، وتعليقات فيسبوك، وغيرها؛ وذلك بهدف تعبيد الطريق أمام الباحثين الراغبين في ارتياد أفق بلاغي جديد، يُعنى باستجابات الجمهور في الفضاءات العمومية.

ينتمي هذا الكتاب إلى الدرس البلاغي المعاصر، الذي لم يتوقف عند حدود دراسة التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والصور البلاغية الأخرى، ولا عند دراسة كيفية إمداد المتكلّم بعدّته البلاغية؛ ليتمكن من الإقناع والتأثير، كذلك لم يكتفِ هذا الدرس بقراءة الخطابات النخبوية، بل راح يفكر في ميادين جديدة للعمل، ويبتكر مفاهيم، ومنهجيات تُضاف إلى ما قدّمه التراث البلاغي الزاخر؛ في توجهاته البلاغية الثلاثة: الأدبية، والدينية، والإنشائية.

لقد دفع عصر استجابات الجماهير العلوم الإنسانية إلى أن تهتم بأنواع غير تقليدية من مادة البحث؛ هي خطابات الجماهير. وكانت بلاغة الجمهور استجابة علمية لخصوصية التواصل الإنساني في هذا العصر الجديد. وفي هذا الكتاب يُقدّم المحرّران أربع عشرة دراسة لباحثين متخصصين في تحليل الخطاب، واللسانيات، والبلاغة الجديدة، قدّموا فيها المفاهيم الأساسية لبلاغة الجمهور، ومنهجيات تحليلها، وأمثلة تفصيلية لتطبيقها على الخطاب الاجتماعي، والسياسي، والديني، والأدبي، والإعلامي.

الناشر

nwf.com
نيلوفرات.كوم
safaadhiab@yahoo.com
العراق، البصرة، العشار
009647730800453

بلاغة الجمهور

بلاغة الجمهور.. مفاهيم وتطبيقات

دراسات محكّمة

تحرير وتقديم: د. صلاح حسن حاوي- د. عبد الوهاب صديقي

الطبعة الأولى: 2017

الغلاف: صدام الجميلي

حقوق النسخ والتأليف © دار شهريار

Copyright©2017 by **Shahrayar Books**

العراق / البصرة / العشار / خلف فندق اليرموك / مقابل مقهى الأدباء في العشار

Mob: 009647730800453 - 009647814145195

بريد إلكتروني: safaadhiab@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، من دون إذن خطّي من الناشر.

الترقيم الدولي ISBN: 978 -1-77322-269-1

بلاغة الجمهور

مفاهيم وتطبيقات

تحرير وتقديم

د. صلاح حسن حاوي د. عبد الوهاب صدّيقي

إلى الحالمين بآفاق بلاغية جديدة

المحتويات

تقديم المحررين 9

الدراسة الافتتاحية: عماد عبد اللطيف: ماذا تقدّم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟ 17

القسم النظري 43

إدريس جبري: في علاقة البلاغة العامة بالبلاغة الخاصة: بلاغة الجمهور نموذجًا 45

سعيد بكار: في مفهوم بلاغة الجمهور 69

صلاح حسن حاوي: بلاغة الجمهور ونظريات التواصل 97

عبد الوهاب صديقي: بلاغة الجمهور مفاهيم وقضايا 118

عماد عبد اللطيف: منهجيات دراسة الجمهور 136

القسم التطبيقي 173

المحور الأول: بلاغة الجمهور والخطاب الديني 175

حامدة تقبايت: بلاغة الجمهور في تلقي الخطاب الديني.. خطاب الفتوى أنموذجًا 177

ضياء الدين محمد: بلاغة جمهور الخطاب الديني في الفضاء الافتراضي 205

المحور الثاني: بلاغة الجمهور والخطاب السياسي 253

أحمد عبد الحميد عمر: يسقط يسقط! بلاغة الجمهور بوصفها ممارسة حجاجية 255

بسمة عبد العزيز: بلاغة المقاومة..الجمهور وخصائص الاستجابة النقدية البليغة 272

بهاء الدين أبو الحسن: بلاغة الجمهور بين الفكاهة والعنف اللفظي 310

عبد الوهاب صديقي: بلاغة الجمهور والخطاب السياسي المغربي المعاصر 328

المحور الثالث: بلاغة الجمهور والسرد 365

خالد أبو الليل: السيرة الهلالية والتلقي الشعبي..... 367
ممدوح النابي: السُّلْطَةَ الخَادِعَةَ... والوَعي الزَّائِف..... 416
مصادر الكتاب ومراجعه..... 453

منهجيات دراسة الجمهور

دراسة مقارنة

د. عماد عبد اللطيف

تمهيد: دراسات الجمهور في الحقول المعرفية المختلفة

دراسات الجمهور منطقة بحث مشتركة بين عدد كبير من الحقول المعرفية. ووفقًا لشارون جارفيس، فإن الجمهور يُعنى به في الحقول المعرفية الآتية:

- "البلاغة والإنشاء؛
- نظرية القراءة، والنظرية الأدبية، والنقد الأدبي؛
- الفلسفة؛
- دراسات الأداء، والتواصل الشفاهي، والمناظرة؛
- دراسات الفيلم، والمسرح، والراديو، والتلفزيون، والصحافة، والتواصل الجماهيري؛
- الدراسات الثقافية، والاقتصاد السياسي؛
دراسات التواصل الآلي، والسياسة العامة، والقانون، والتسويق، وإدارة الأعمال"[1].

وبالطبع فإننا نتوقع وجود فضاءات تتقاطع فيها هذه الحقول المختلفة، علاوة عليتلك التي يستقل بها كلٌّ منها. غير أن جارفيس لم تُناقش فضاءات التقاطع أو التمايز بين الحقول المعرفية المختلفة المعنيّة بالجمهور، سواء من زاوية المنظور، أو الأسئلة المعرفية، أو الوظائف، أو طبيعة البيانات التي يهتم كلٌّ منها بدراستها.

١-جارفيس، شارون. (٢٠١٦/ ٢٠٠١). الجمهور. ضمن "موسوعة البلاغة"، تحرير توماس سلوان، دار جامعة أكسفورد، ترجمة عماد عبد اللطيف، نشر المركز القومي للترجمة، ج١، ص ٢١٩.

تشترك بلاغة الجمهور مع الحقول السابقة في كون الجمهور هو مركز اهتمامها. وتحتاج بلاغة الجمهور، بوصفها حقلا معرفيًا ناشئًا، إلى رسم حدود ارتباطاتها المعرفية مع الحقول وثيقة الصلة؛ بهدف تحديد ملامح التمايز والاستقلال من ناحية، واستكشاف الروابط والعلاقات من ناحية أخرى. وسوف أقتصر في هذه الدراسة على استكشاف مناطق التقاطع والتمايز بين بلاغة الجمهور وعدد محدود من الحقول التي أوردتها جارفيس في قائمتها. وعلى نحو أكثر تحديدًا، فإنني سأدرس حدود العلاقة بين بلاغة الجمهور والحقول المعرفية الآتية:

١. نظريات القراءة والتلقي ونقد استجابة القارئ؛
٢. دراسات البلاغة الكلاسيكية والمعاصرة.
٣. دراسات التواصل الجماهيري.

يرجع اختياري لهذه الحقول الثلاثة تحديدًا إلى أسباب تخصُّ كلَّ حقلٍ منها. فنظريات القراءة والتلقي ونقد استجابة القارئ تُمثّل التوجهات الأكثر حظوة بين النقادِ العرب المعنيين بدراسة المتلقين في الوقت الراهن. وكثيرًا ما طُرحت تساؤلات بشأن حدود العلاقة بينها وبين بلاغة الجمهور.

وتُعدُّ دراسات البلاغة الكلاسيكية والمعاصرة الوعاء الحاضن لبلاغة الجمهور، وقد دافعتُ في المقال التأسيسي لبلاغة الجمهور عن ضرورة تبني مقاربة مغايرة للمقاربات التقليدية للمخاطَب في الدراسات البلاغية؛ مركّزًا على البلاغتين العربية واليونانية القديمة. لكنني لم أقدم دراسة تفصيلية لتوجهات دراسة الجمهور في البلاغة الكلاسيكية أو المعاصرة مكتفيًا برسم خطوط عامة. وسوف أحاول سدَّ هذه الفجوة في هذا البحث، إذ أخصص معالجتي لتقديم تحليل تفصيلي لتوجهات دراسة الجمهور في البلاغتين اليونانية القديمة، والغربية المعاصرة من ناحية، والبلاغة العربية من ناحية أخرى.

أما دراسات التواصل فقد قدّمتْ الإسهام الأكبر في بحث الجمهور في العقود الثلاثة الأخيرة، وهو الحقل المعرفي الوحيد تقريبًا الذي طوّر توجهًا معرفيًا يستقل بدراسة الجمهور هو دراسات الجمهور "Audience Studies"، تعمل في إطاره أعداد كبيرة من الباحثين، وتصدر عنه سلاسل كتب ودوريات أكاديمية. وتشترك بعض هذه الدراسات مع بلاغة الجمهور ليس في مدونة البحث فقط، بل أيضًا في عدد من الأسئلة البحثية، والغايات المعرفيّة.

وسوف أعرض للتوجهات المختلفة التي تهتم بدراسة الجمهور في إطار دراسات التواصل، مبرزًا نقاط التقاطع والتمايز بينها وبين بلاغة الجمهور.

١- بلاغة الجمهور ومقاربات القارئ: تقاطعات وتباينات[١]

تمثل دراسة استجابات الجمهور للأدب حقلا بحثيًا بكرًا. فقد عُنيت الدراسات الأدبية والنقدية عادة بتحليل البنى اللغوية والأسلوبية والجمالية للنصوص الأدبية، ودراسة علاقاتها بالمجتمع الذي تُنتَج فيه، وبالمبدع المنتِج لها، وتتبع الصلات بين النصوص الأدبية وغير الأدبية المؤثرة فيها، وغيرها من الظواهر المتصلة بالنص أو المبدع. وكانت العناية بمن يتلقون الأدب محدودة طوال تاريخ دراسته، حتى تشكلتْ في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين مقاربات تهتم بدور القارئ الأدبي، مثل نظريات القراءة والتلقي واستجابة القارئ. فقد أحدثت هذه النظريات منعطفًا جديدًا في الدراسات الأدبية، بتوجيه الاهتمام نحو المتلقي (القارئ). وتمكنت من إحداث تغيير جذري في اهتمامات الدرس الأدبي المعاصر، وبخاصة في العالم العربي؛ إذ غدتْ تُمثّل منطقة جذب لكثير من الباحثين المعاصرين. وتحتاج هذه المقاربات إلى وقفة متأنية، لكونها تشترك مع بلاغة الجمهور في اهتمامها الأساسي. وسوف أقسم معالجتي قسمين؛ يتناول الأول حدود العلاقة بينهما، ويقدم الثاني دراسة تفصيلية لكيفية عمل بلاغة الجمهور في حقل دراسة الأدب والنقد الأدبي.

١-١- بلاغة الجمهور ونظريات القراءة والتلقي ونقد استجابة القارئ: أية علاقة؟

عادة ما يُثار تساؤل حول نقاط التلاقي والتباين بين بلاغة الجمهور ونظريات القراءة والتلقي واستجابة القارئ. وتبدو هذه التساؤلات مشروعة ومبررة؛ بسبب ما قد يبدو تشاركًا في موضوع الدراسة للوهلة الأولى. فبلاغة الجمهور ونظريات القراءة والتلقي ونقد استجابة القارئ تشترك في عنايتها – من زوايا مختلفة – بالمتلقي، وذلك في مقابل التوجهات المعنيّة ببنية النصوص، أو المبدع، أو المجتمع، أو التراث السابق، أو السياق. وتستفيد بلاغة الجمهور من التحويل الذي أنجزته هذه التوجهات في اهتمامات البحث الأكاديمي؛ وتبني على إسهامها في دمج دراسة المتلقين في مخططات دراسة الأدب.

١- يمكن الاطلاع على معالجة أكثر تفصيلا للعلاقة بين بلاغة الجمهور ونظريات التلقي في الفصل الذي كتبه الدكتور صلاح حاوي حول الموضوع ضمن هذا الكتاب.

ومع ذلك، فإن الأرضية المشتركة بين بلاغة الجمهور وتوجهات دراسة القراء لا تتجاوز التشارك في الاهتمام العام بالمتلقين؛ إذ تستقل كلٌّ منهما بمادة بحث، وأسئلة بحثية، وخلفيات معرفية. على نحو ما سأوضح تفصيلا:

١-١-١مادة البحث(١): الاستجابة المادية في مقابل المعاني المجردة

تتعدد المقاربات التي تعمل في إطار التوجه العام لدراسة القراءة والتلقي. ويتجلى هذا التعدد في التمييز (حتى على مستوى العنوان) بين نظرية فعل القراءة، ونظرية الاستقبال، وهما ذواتا جذور عميقة في الظاهراتية والهرمنيوطيقا الألمانيتين تحديدًا، ومقاربة استجابة القارئ، ذات النزوع الأمريكي الأكثر تجريبية. ومع ذلك، فإنهم جميعًا يشتركون في الاشتغال بنشاط تواصلي واحد هو القراءة، لنوع بعينه من الأنواع المقروءة هو الأدب، واضعين في بؤرة انشغالهم المعاني المحتملة أو المتوقعة التي (قد) يُنتجها قارئ ما لنصٍّ ما، أو المعاني المختلفة التي توصّل إليها قارئ أو قراء محدّدون لنصٍّ ما.

وفي المقابل، فإن بلاغة الجمهور تنشغل بأنشطة تواصلية أخرى غير القراءة، مثل الاستماع، والفرجة، تلقيًا لكافة الأنواع التي تُنتج في فضاءات عمومية، ولاسيما المرتبطة بالحياة اليومية، مثل مباريات كرة القدم، والحفلات الغنائية، والخطب السياسية، وعروض الكلام، والمناظرات العلمية، والمظاهرات النقابية،... إلخ، مركزةً على استجابات الجمهور لهذه الخطابات العمومية تحديدًا[١]. لقد انتُقدت توجهات دراسة القارئ؛ بسبب هذا الاقتصار على دراسة فعل إنتاج المعنى عند القارئ، فقد ذكرت جين تومبكنز أنه فيما يتعلق بموقف الناقد بأنه مفسِّر للنص؛ فإن "نقد استجابة القارئ لا يختلف عن النقد الشكلاني الذي يدّعي معارضته، أو عن أي مقترب معاصر آخر للأدب. إن الاختلاف يكمن فقط في أنه بدلا من بلوغ معنى أدبي بوساطة استخدام

١- نُقلت بعض الأعمال المؤسسة لمقاربات القارئ في النقد إلى العربية؛ فقد تُرجمت أجزاء من كتاب فعل القراءة لإيزر (ترجمها حميد لحميداني والجلالي الكدية، منشورات المناهل، فاس، د. ت.)، وترجم حسن ناظم، وعلي حاكم كتاب نقد استجابة القارئ لجين تومبكنز، (المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩)، وترجم عزالدين إسماعيل كتاب نظرية التلقي، لروبورتهولب، (١٩٩٤). وهناك فصل ممتاز عن مقاربات القارئ في موسوعة كمبريدج للنقد الأدبي (مراجعة وإشراف ماري عبد المسيح، (المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦). أما الكتابات العربية، فهي وافرة. وقد كتب حسن البنا عز الدين عرضًا وافيًا لأهم أعمال نقد القارئ في أصولها الغربية، وتطبيقاتها العربية، انظر عزالدين، حسن البنا. (٢٠٠٨). قراءة الآخر/ قراءة الأنا: نظرية التلقي وتطبيقاتها في النقد الأدبي العربي المعاصر. هيئة قصور الثقافة، القاهرة.

المعجمية المنبثقة من الشكلانية واللسانيات ونظرية الأنواع أو الأسطورة، فإن نقاد القارئ يستعينون بالأنظمة التأويلية في وصف الأنواع المختلفة للفعالية الذهنية"[١]. وبإيجاز شديد، فإن الإسهام الأساسي لنقاد استجابة القارئ – بحسب تومبكنز- هو أنهم "وسعوا سلطة النموذج التأويلي الذي ورثوه عن الشكلانية، من خلال جعل استجابات القراء الفردية ركيزة شرعية للتأويل الأدبي"[٢].

على خلاف ذلك، تُعنى بلاغة الجمهور بدراسة الاستجابات المادية الملموسة لخطاب ما في سياق محدد؛ مثل دراسة استجابات الجمهور التي أنتجها جمهور حفل نصير شمّة في أكتوبر ديسمبر ٢٠١٠، وقدّم فيه معزوفة "ملجأ العامرية" التي تخلد ذكرى مقتل نحو ٥٠٠ طفل عراقي، على الأقل، بسبب القصف الأمريكي لملجئهم في حربها الأولى على العراق[٣]؛ أو جمهور المناظرة التاريخية بين فرج فودة ومحمد عمارة ومأمون الهضيبي بعنوان (مصر بين الدولة الدينية والدولة المدنية)، في يناير ١٩٩٢، قبل أربعة شهور فقط من مقتل فرج فودة على يد أحد المتشددين الإسلاميين[٤]؛ أو دراسة التعليقات المكتوبة والمرسومة على خبر في صحيفة حكومية عن تخفيض قيمة العملة المحلية؛ أو استجابات الجمهور لخطاب أوباما في جامعة القاهرة ٢٠٠٨... إلخ.

يُمكن، إذًا، إيجاز الفرق بين مادة بحث بلاغة الجمهور ونظريات التلقي بأن الأولى تُعنى بتحليل الاستجابات المادية (اللغوية وغير اللغوية) للخطاب، في حين تُعنى الثانية بالمعاني المجردة المحتملة أو الفعلية لنص ما. ويبدو هذا الفرق حاسمًا وفاصلا بشكل كامل بين مقاربات القراءة والتلقي من ناحية، وبلاغة الجمهور من ناحية أخرى. لكن هناك فروقًا أخرى في مادة الدراسة تتعلق بطبيعة الخطاب الذي تنتمي إليه مادة الدراسة التي يستقل بها كلٌّ منهما.

مادة البحث (٢): خطابات الحياة اليوميّة في مقابل الأدب

تركز مقاربات القراءة والتلقي على دراسة النصوص الأدبية العليا. وعلى العكس من ذلك، فإن بلاغة الجمهور – في مبتدأ نشأتها – اهتمت بدراسة استجابات الجمهور في خطابات الحياة

١-انظر، تومبكنز، جين. القارئ في التاريخ: تغير شكل الاستجابة الأدبية، ضمن نقد استجابة القارئ، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩، ص ٣٤٥.

٢- نفسه، ص ٣٥٤، (بتصرف)

٣- يمكن مشاهدة تسجيل للحفل على الرابط الآتي: https: //www. youtube. com/watch?v=V7a_K6kQ8p0

٤- يمكن مشاهدة تسجيل للمناظرة على الرابط الآتي: https: //www. youtube. com/watch?v=3GfJOlQRS7w

اليومية. ففي حين تنشغل بلاغة الجمهور بدراسة استجابات الجمهور في حفلات الغناء الشعبي ومحافل الخطابة السياسية وبرامج التوكشو، ومباريات كرة القدم... إلخ، تهتم توجهات دراسة القراءة والتلقي بتلقي الشعر، والرواية، والمسرح، والقصة القصيرة، ونحوها من الآداب النخبوية المكتوبة. لكن هذا التمييز في مدونة الدراسة يوشك أن يتلاشى، بفضل الاهتمام المتزايد الذي تُعطيه بلاغة الجمهور للنصوص الأدبية في الوقت الراهن[١].

مادة البحث (٣): الفضاءات العمومية في مقابل الفضاء الفردي

تُعنى بلاغة الجمهور بدراسة استجابات الجمهور في الفضاءات العمومية، في حين تقتصر توجهات دراسة القراءة والتلقي على تحليل عمليات إنتاج المعنى في فضاءات فردية أو خاصة. فبلاغة الجمهور تدرس مثلا هتافات حشد من المتفرجين أثناء مشاهدة فيلم سينمائي لعادل إمام أو جاكي شان وتعليقاتهم، في حين تدرس مقاربات القراءة والتلقي، تأويلات قارئ مثقف لقصيدة للمتنبي. وفي أحيان قليلة، يقوم نقاد القراءة والتلقي بتحليل تأويلات جمهور مخصوص (من طلبة الجامعة غالبًا)، لقصيدة أو قصة ما داخل سياق محدد (قاعة التدريس الجامعي غالبًا)[٢]. لكن نادرًا ما تدرس هذه المقاربات تلقي جمهور غُفل لنص أدبي، في سياقات تلقي حر، خارج إطار الملاحظة العلمية المنظمة والمعدة سلفًا. وينقلنا هذا إلى تمييز آخر بين التوجهين يتعلق بالسياقات المدروسة.

مادة البحث (٤): تحليل الاستجابة في السياقات الطبيعية في مقابل السياقات المصنوعة

أحد الشروط التي تضعها بلاغة الجمهور لدراسة استجابة ما، هو أن تُنتج في سياق طبيعي، وليس في سياق مصنوع. وهذا أحد الفروق الأساسية بين بلاغة الجمهور ودراسات القراءة والتلقي. فالأولى تهتم باستجابات الجمهور الحرة في سياقات طبيعية، غير مصممة سلفًا أو محكومة بقيود وضوابط من الباحثين. أما دارسو القراءة والتلقي فيدرسون المعاني التي يُنتجها أشخاص معيّنون في سياقات مقيّدة ومضبوطة ومحكومة بشكل مسبق. وغالبًا ما يكون

١- انظر دراسات د. ممدوح النابي، ود. خالد أبو الليل ضمن هذه الكتاب.

٢- لعرض شامل، وإن كان قديمًا نسبيًا، لدراسات استجابات القراء للأدب، يمكن الرجوع إلى: Beach, R. , &Hynds, S. (1991). Research on response to literature. *Handbook of reading research*, *2*, 453-489.

المشاركون في هذه "التجارب" واعين بما هو مطلوب منهم، ويسلكون وفق ما يتوقعه منهم مصممو التجربة ومنفذوها. إن بلاغة الجمهور لا تهتم باستجابات الجمهور أثناء الخضوع لتجارب بحثية، في حين يكاد دارسو القراءة والتلقي لا ينشغلون إلا بها.

مادة البحث (٥): الاستجابات الجماعية في مقابل التأويل الفردي

تركز بلاغة الجمهور على الاستجابات الجماعية التي تُنتجها مجموعة من المتلقين يشكلون جمهورًا؛ مثل دراسة مرات الإعجاب وعدم الإعجاب بسلسلة من التعليقات على الفيسبوك، أو إعادة بث تغريدات ما على تويتر. أما نظريات القراءة والتلقي فتهتم أساسًا بالاستجابات المعنوية الفردية. وفي الحقيقة فإن الاستجابات الجماعية هي الأكثر قيمة، والأجدر بالدراسة، في إطار بلاغة الجمهور. وعلى العكس من ذلك، فإن الاستجابات الفردية هي الأكثر قيمة والأجدر بالدراسة في إطار دراسات القراءة والتلقي.

١-١-٢ الأسئلة البحثية: من سؤال المعنى إلى سؤال الاستجابة

تُعد خصوصية الأسئلة المعرفية التي يستهدف البحث الإجابة عنها، من أهم نقاط التمايز بين دراسات القراءة والتلقي من ناحية وبلاغة الجمهور من ناحية أخرى. تسعى دراسات القراءة والتلقي إلى الإجابة عن أسئلة هي:

أ- ما دور القارئ بوصفه ذاتًا قارئة في إضفاء معنى على النص المقروء بواسطة ملء فجواته؟
ب- ما العوامل المؤثرة في اختلاف تأويلات القراء لنص ما، والتفسيرات المحتملة لهذا التباين؟
ت- ما الآليات التي يستعملها القارئ في إنتاج المعنى الأدبي في ضوء أفق توقعه؟
ث-ما تأثير التكوين الشخصي للقارئ (ميوله، ثقافته، تحيزاته.. إلخ) في المعنى الذي يُنتجه للنص الأدبي؟

وعلى خلاف ذلك، فإن بلاغة الجمهور تسعى للإجابة عن حزمة مغايرة من الأسئلة المعرفية، منها:

أ- ما الاستجابات الفعلية التي يُنتجها متلقٍ فعلي معيّن في سياق واقعي محدد؟

ب- ما العلاقة بين استجابات الجمهور والبنية اللغوية والأسلوبية والجمالية للنص، وطريقة أدائه، ووسيط تداوله، وسياق تلقيه؟
ت- ما العوامل المؤثرة في استجابات الجمهور؟وكيف تُنتِج تأثيرها؟
ث-كيف يتفاوض الجمهور مع منتِج الخطاب حول مصادر القوة؟
ج- ما دور استجابات الجمهور الآنية في توجيه الخطاب، وفي دعم أو مقاومة سلطة صاحب الخطاب؟
ح- ما الاستجابات المحتملة الأكثر قدرة على مقاومة الخطاب السلطوي؟
خ- ما أشكال الإكراه على الاستجابة؟ وكيف يمكن مقاومتها؟

هذه الأسئلة المعرفية وغيرها تختص بها بلاغة الجمهور[1]، ويمكن طرحها على عدد غير متناه من مدونات الدراسة في كل اللغات والثقافات.

١-١-٣ الأسس النظرية: حالة مفهوم الاستجابة

هناك تباين جذري في مفهوم الاستجابة بين بلاغة الجمهور ودراسات القراءة والتلقي، وبحسب ديفيد بليتش فإن الاستجابة "فعل إدراكي حاسم ينقل التجربة الحسية إلى الوعي، فتصبح التجربة الحسية جزءًا من الشعور بالذات، وبهذه الطريقة نتمثل التجربة"[2]. ويضرب بليتش مثالا على هذا النوع من الاستجابة من خلال الموقف الآتي: "أنا على مائدة عشاء مع شخص آخر، شخص يقاطع حديثي بالقول: "هل تستطيع أن تناولني الملح رجاءً؟ واستجابتي هي تمثلي البصري للملح، ونتيجة هذه الاستجابة هي الفعل الحركي الذي هو مناولته الملح. وهذا الفعل الأخير، أي مناولته الملح، لا يؤول استجابتي أو يعيد ترميزها، بل بالأحرى يزيل فكرة الملح من الوعي ليتيح لحديثي أن يستمر"[3]. يكاد مفهوم ديفيد بليتش يتطابق مع مفهوم التمثل، ومن هنا نفهم إلحاحه على الربط بين الاستجابة والتأويل. وعلى خلاف ذلك، فإنني أتبنى مفهومًا للاستجابة يقرنها بالأفعال اللفظيّة وغير اللفظيّة التي يُنتجها المتلقي في سياق محدد، استجابة لخطاب آخر. ولو أنني أستعين بالموقف نفسه الذي رسمه بليتش فإن العبارة التي سيقولها الشخص وهو يعطي لجاره قارورة الملح، والعلامات الحركية أو المرئية التي تصاحبها، هي

١- انظر قائمة وافية للأسئلة البحثية لبلاغة الجمهور ضمن، بلاغة المخاطب، مرجع سابق، ص ٢٢-٢٣.
٢- بليتش، ديفيد. الافتراضات الأبستمولوجية في دراسة الاستجابة. ضمن "نقد استجابة القارئ"، مرجع سابق، ص ٢٣٩.
٣- نفسه، ص ٣٤٠.

وحدها التي تُعدُّ "استجابة"، وتكون موضوعًا للبحث في إطار بلاغة الجمهور التي تدرس المنتج المادي الظاهر أثناء التواصل، والعوامل المادية وغير المادية التي يُحتمل أنها تؤثر في الجمهور؛ مثل نوع وسيط التداول، وطبيعة العلاقة بين المخاطب والجمهور، والأعراف والشروط التي تحكم سياق الاستجابة... إلخ. وعلى الرغم من أهمية البُعد المعرفي والفسيولوجي في معالجة اللغة، والاستجابة لها، فإن بلاغة الجمهور لا تُدرج – في مخططها الراهن – دراسة العمليات الذهنية التي تجري في المخ، أو العمليات الشعورية التي تعتري النفس أثناء إنتاج الاستجابة، ضمن مخططها لدراسة استجابة الجمهور. فبحث هذين الموضوعين متروك لعلوم أخرى مثل علم النفس الإدراكي Cognitive psychology، وعلم اللغة العصبي neurolinguistics. وعلى الرغم من أن بلاغة الجمهور يمكنها أن تفيد من نتائج البحث في هذه العلوم، فإنها معنيّة بشكل أساسي بالاستجابات المادية الفعلية، والعوامل المادية المؤثرة فيها.

١-٢ تحليل استجابات الجماهير للأعمال الأدبية: أسئلة جديدة لمدونة قديمة

لا يُعرف على وجه الدقة متى بدأ الاستعمال الجمالي للغة في تاريخ البشر. لكننا نعلم عن يقين أن طرح الأسئلة المعرفية بشأنه لم يتوقف لآلاف السنين. وفيما يأتي أقترح حزمًا من موضوعات البحث وثيقة الصلة بتوجه بلاغة الجمهور، ربما تمثل أفقًا بحثيًا جديدًا للمشتغلين في هذا الحقل الكبير.

١-٢-١ دراسة الاستجابات التراثية في سياقات التواصل المباشر:

اقترن تداول الأدب في المجتمعات الإنسانية الأولى بسياقات التواصل المباشر في بيئة طبيعية. فالشاعر أو الحكّاء يُنشِد أو يقصُّ أو يؤدي أمام جمهور مباشر، في سياقات زمانية ومكانية محكومة بأوضاع محددة. ويتبادل الأديب (أو راويه) مع الجمهور الاستجابات المنتجة وجهًا لوجه؛ مثل الاستحسان أو الاستهجان، طلب التكرار أو التشويش، طلب التفسير أو التعليق. وهي استجابات يُعبر عنها بواسطة عشرات الأفعال مثل الهتاف، والصفير، والهمهمة، والتصفيق، والمقاطعة، وتغيير هيئة الوقوف أو القعود، ومغادرة المكان، ومنح المكافأة، والترديد وراء الأديب، والصراخ وغيرها. ويمثل تحليل استجابات الجمهور للأدب في سياقات التواصل المباشر القديمة موضوعًا مهمًا من موضوعات البحث في بلاغة الجمهور. وهو موضوع غير

مطروق، وليست فيه دراسات عربية أو أجنبية بحسب اطلاعي. والدراسات الأكاديمية التي أقترح أن تُنجز في هذا الموضوع ستكون معنيّة بما يأتي:

١. جمع بيانات وافية حول سياقات تداول الأدب في التراث القديم: وفي حالة التراث العربي – مثلا- يمكن العثور على هذه البيانات في أعمال عديدة مثل البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الأغاني للأصفهاني، والإمتاع والمؤانسة للتوحيدي وغيرها.

٢. تقديم تحليل لسياقات تداول الخطابات الأدبية، استنادًا إلى البيانات المتاحة: ويمكن خلال ذلك تصنيف هذه السياقات إلى سياقات رسمية أو شعبية، عامة أو خاصة، دينية أو سياسية أو اجتماعية، ذكورية أو نسائية، تعليمية أو ترفيهية... إلخ. ودراسة أثر نوع السياق في الاستجابات المنتجة فيه. كما تُدرس المواضعات الاجتماعية التي تحكم سياقات التواصل الأدبي المباشر في المجتمعات القديمة (مثل وقوف الشاعر بين يدي الممدوح، وجلوسه بين يدي العامة... إلخ)، وأثر هذه المواضعات في استجابات الجمهور للأدب.

٣. دراسة العلاقة بين طبيعة النصوص الأدبية والاستجابات التي تُنتجها؛ مثل التباين في حدود الاستجابة للخطبة الوعظية مقارنة بالقص الديني الشعبي، والتباين في الاستجابة للأشعار الشعبية مقارنة بالأشعار الرسمية... إلى آخره.

٤. رسم خريطة لاستجابات الجمهور للأدب في حقب تاريخية متتابعة، وتتبع التغيرات التي طرأت على هذه الاستجابات وتفسيرها.

٥. مقارنة الاستجابات القديمة للأدب بالاستجابات الراهنة له، وتفسير ملامح التشابه والاختلاف. ومقارنة الاستجابات المختلفة للأدب عبر الثقافات المختلفة؛ بهدف الوصول إلى تحديد دقيق للخصوصيات الثقافية للاستجابات للنصوص الأدبية.

وفيما يتعلق بالأدب العربي على وجه التحديد، فإننا بحاجة إلى عدة رسائل وبحوث جامعية لتغطية هذه المنطقة البحثية الجديرة بالاهتمام.

١-٢-٢ من الفضاء الحي إلى الفضاء الورقي: دراسة استجابات الجمهور الأدبي في عصر الكتابة

أدى اختراع الكتابة، وتحوّلها إلى حامل للثقافة والفكر والأدب، إلى إمكانية تداول الأدب في سياقات تواصل غير مباشرة، متجاوزًا قيود الزمان والمكان. وأصبح الفضاء الورقي بديلا للفضاء الفيزيقي الذي كان يجمع الأديب بالمتلقين. فقد كان القارئ يسجل استجاباته للنص

المقروء في الفراغ الأبيض للصفحات المقروءة، في شكل عبارات أو رسوم أو اقتباس أو تخطيط تحت الكلمات أو غيرها. بالطبع ظلّ التواصل المباشر قائمًا، ومهيمنًا – في الغالب – على سياقات تداول النصوص. لكن الرقعة التي يشغلها التواصل غير المباشر كانت تتسع شيئًا فشيئًا عبر القرون. وبعد عدة آلاف من السنين، أحدث اختراع الطباعة تحولا جذريًا في تداول الأدب في العالم الحديث. فبفضل تطور تقنيات النشر أصبحت القراءة الوسيط الأهم لتداول الأدب، وتقلّص تداوله عبر الاتصال المباشر إلى حد كبير.

تقدم لنا حقبة ما بعد الطباعة نوعًا مختلفًا من أنواع الاستجابات للأدب، التي يمكن أن يعمل عليها الباحثون في بلاغة الجمهور. نعثر على هذه الاستجابات بوفرة في المكتبات العامة التي تتيح تداول الكتب بين عدد كبير من القراء، وفي المكتبات الخاصة التي تتيح الإعارة الداخلية أو الخارجية، والمكتبات الفردية التي يستعير منها أفراد مختلفون. يمكن رصد أهم ما يميز هذه الاستجابات فيما يأتي:

١. أنها استجابات منسجمة مع نوع الوسيط؛ فهي استجابات مكتوبة بالأساس، بالتوازي مع النص المكتوب. ومن ثمّ، فإنها تفتقد إلى التنوع العلاماتي، الذي كان باستطاعتنا العثور عليه في الاستجابات الحية قبل انتشار الطباعة؛ إذ كان الصوت والهيئة والحركة يتكاملون مع الكلمة المنطوقة في تشكيل استجابة الجمهور.

٢. أنها تتيح تراكمًا وتفاعلا بين الاستجابات المتوالية زمنيًا. فنظرًا لتعدد قراء النسخة الواحدة من كتاب ما، نعثر على أشكال من التحاور والتفاعل بين الاستجابات التي يقدمها قراء متنوعون للكتاب. ومن المألوف أن نجد في نسخة واحدة تعليقًا على هامش إحدى الصفحات لقارئ ما، يجاوره تعليق آخر مؤيّد أو مفنّد. وقد يصل التفاعل بين الاستجابات المختلفة إلى حد تعمُّد المحو، حين يقوم قارئ لاحق، بإزالة تعليق لقارئ سابق؛ لأنه لا يرضيه. وقد يكون التحاور بين الاستجابات المختلفة نتاج مراحل زمنية مختلفة للقارئ الواحد؛ إذ نجد تعليقات متباينة لقارئ واحد على نص واحد، قرأه مرات متعددة، وتفاعل مع استجاباته السابقة.

يمكن للباحث في بلاغة الجمهور أن يدرس استجابات قراء الأدب في الفضاء الورقي، من زوايا مختلفة، منها:

أ- دراسة أشكال التفاعل بين النص المقروء وقرائه، بواسطة تحليل استجابات القراء المكتوبة.

ب-دراسة أشكال التفاعل بين القراء المتنوعين للنص الواحد، بواسطة تحليل التفاعل بين استجاباتهم لنص أدبي ما.

١-٢-٢ التواصل عبر الوسائط المرئية: دراسة استجابات جمهور الأدب في العصر الرقمي

شهدت العقود الثلاثة الماضية تحولا جذريًا في طبيعة وسائط تداول الأدب. يمكن أن نحدد أهم ملامح هذا التحول فيما يأتي:

١. التحول من فضاء الورقة المادي إلى فضاء الشاشة الافتراضي.
٢. التحول من النص الأفقي إلى النص المتشعب hypertext
٣. التحول من الاستجابات المحدودة للقراء إلى الاستجابات المفتوحة.

لقد أدى تداول الأدب في وسائط التواصل التقنية إلى تغيير جذري في العلاقة بين النص والمؤلف من ناحية، والقارئ/ الجمهور من ناحية أخرى. فقد صُممت أعمال أدبية لتتناسب بنيتها مع الوسيط التقني[١]. كما زادت الأهمية المعطاة لاستجابات الجمهور في هذا الفضاء إلى حد عدّها مؤشرًا مهمًا من مؤشرات الرواج الأدبي.

يمكن للمعني ببلاغة الجمهور أن يدرس الموضوعات الآتية:

١. حصر أشكال استجابات الجمهور للأدب في الفضاء الرقمي، وتصنيفها.
٢. دراسة ملامح التباين والتشابه بين استجابات الجمهور للأدب في فضاءات التواصل التقليدية، واستجاباته في الفضاء الرقمي. (مثل الثراء العلاماتي في الاستجابات الرقمية، وإمكانية التحاور والتفاعل عبر الزمن، وتجاوز قيود الحدود الجغرافية، وتجاوز حدود اللغة (بفضل برامج الترجمة الآلية).
٣. دراسة أشكال التفاعل بين استجابات الجمهور للنصوص الأدبية في الفضاء الرقمي.

١- انظر على سبيل المثال، Hayles, N. K. (2008). *Electronic literature: new horizons for the literary*. University of Notre Dame Press.

٢. بلاغة الجمهور وعلوم التواصل

تُعد دراسات التواصل أكثر الحقول المعرفية تماسًا مع مشروع بلاغة الجمهور. فعلى مدار القرن الماضي بأكمله حظي الجمهور العمومي باهتمام أكاديمي متواصل، تزامن مع اكتشاف وسائل التواصل الجماهيري، وتدشين ما أصبح يُعرف بعصر الجماهير الغفيرة. وقد أدى التراكم المعرفي حول الجمهور إلى ظهور توجه كامل في البحث الأكاديمي في إطار دراسات التواصل يحمل اسم "دراسات الجمهور Audience Studies". وتميز سونيا ليفنجستون بين ستة مسارات للعلاقة بين دراسات الجمهور وعلوم التواصل، تلخصها فيما يأتي[١]:

المسار الأول: ينبع من الدراسات الثقافية، وتحديدًا من عمل ستيوارت هال "التشفير/ فك التشفير"[٢] Hall, 1980. فقد "قدّم هال مصطلحي التشفير وفك التشفير، لكي يُحدث تكاملا بين النص ودراسات الجمهور...، بهدف فحص كيف تعتمد درجة الفهم الحسن أو السيئ للرسائل التواصلية على (غياب) اتساق علاقات التوازن بين المرسل (المشفّر) والمستقبل (فاك الشفرة)".

المسار الثاني: ينتمي إلى دراسات الإشباعاتgratifications studies ويهتم بدراسة استجابات مختارة للجمهور تجاه فيض وسائل الإعلام، وخصوصًا الجمهور النشط active audience. وهدف هذه الدراسات هو فحص ما يفعله الجمهور بالنصوص لكي يهيئ المجال للاستعمالات الشعائرية للتواصل، وكذلك لنقل محتوى وسائل الإعلام من المنتجين إلى الجمهور.

المسار الثالث: ينتمي إلى الدراسات النقدية لوسائل الإعلام الجماهيري، ويهدف إلى تحويل الاهتمام من التركيز الكلي على المحددات الأيديولوجية والمؤسسية لنصوص وسائل الإعلام كي

١- انظر: Livingstone, S. (1998) Relationships between media and audiences: Prospects for future audience reception studies. In Liebes, T. , and Curran, J. (Eds.), Media, Ritual and Identity: Essays in Honor of Elihu Katz. London: Routledge.، ص ٢-٣ (بتصرف)، نسخة منشورة على الإنترنت، على الرابط الآتي: http: //eprints. lse. ac. uk/1005/1/Relationships_between_media_and_audiences (LSERO). pdf

2- Hall, S. (1980). Encoding/Decoding. In S. Hall, D. Hobson, A. Lowe, & P. Willis (Eds.), *Culture, Media, Language* London: Hutchinson.

تشمل دورًا لنشاط محتمل، ولكنه خفي، للجمهور[1]. وينتج عنه تركيز على الجمهور المقاوم، ومساءلة نظريات الهيمنة مثل أطروحة الأيديولوجيا المهيمنة، وأطروحة الاستعمار الثقافي.

المسار الرابع: ويعتمد على المقاربة البنيوية لتحليل النصوص، بوصفها جزءًا من التوجه نحو ما بعد البنيوية. ويمثل هذا المسار مدرسة برمنجهام للنقد الثقافي ومدارس جماليات التلقي الألماني، ونظرية استجابة القارئ الأمريكية. وترى ليفنجستون أن دراسة أمبرتو إيكو حول دور القارئ Eco, 1979، كانت حاسمة في التنظير لمقاربة متكاملة للنص والقارئ. وقد اقترح إيكو في دراسته أن "القارئ النموذجي model reader"، هو نسق ضمني من الافتراضات يمكن تتبع آثاره في بنية نص ما، ويجعل معنى النص مفتوحًا وغير مستقر بشكل جذري.

المسار الخامس: ويرتبط بالمقاربات النسوية التي ردت الاعتبار لدور الجمهور النسوي الثقافي العمومي في إطار النظرية الثقافية. ونتج عن هذا إعادة النظر في تأطير الأنواع النسوية والذكورية الجيدة والسيئة (الأخبار في مقابل مسلسلات التلفزيون مثلا)، والاستجابات المعرفية والشعورية للثقافات النخبوية والشعبية، وطرح نسق بديل من القيم يميز بين الجماهير الإيجابية والسلبية، وبين القراءات النقدية والمعيارية، والنصوص المفتوحة والمغلقة. وقدم التأكيد على الجماهير المهمشة تركيزًا على الحجج المتعلقة بإعادة تقييم النظرية المعيارية، أو إعطاء صوت لهؤلاء الذين يقعون خارج مجال اهتمامها.

المسار السادس: يقترن بالتحول الإثنوغرافي الذي يحول الانتباه من التأويل النصي إلى إعادة بناء السياق. ويتضمن هذا المسار تحليل الثقافة اليومية بشكل تفصيلي، وتحليل الأبعاد الشعائرية للثقافة والتواصل، والمعاني التي تُنتج من خلالها المعاني، ويُعاد إنتاجها في الحياة اليومية.

بعد نحو عقد ونصف من مقالة ليفنجستون، نشر نيك كولدري (٢٠١١) Couldry دراسة حول "المستقبل الضروري للجمهور... وكيفية دراسته[2]"، رصد فيها تطورات دراسة الجمهور في الأكاديميات الغربية، فقد شهدت نهايات القرن العشرين التحول من البحث النقدي في جمهور وسائل الإعلام إلى الدرس الإمبريقي المتداخل مع البحث الأنثروبولوجي. أما العقد الأول من القرن الحادي والعشرين فقد شهد محاولتين لتغيير النموذج الإرشادي لبحوث

١- نفسه، ص ٤.

2- Couldry, N. (2011) The Necessary Future of the Audience … and how to Research it, in The Handbook of Media Audiences (ed V. Nightingale), Oxford: Wiley-Blackwell.٢١٣-٢٢٩، ص.

الجمهور؛ الأول هو تحدي نموذج البحث المركز على أسئلة أيديولوجية؛ وبالتحديد النموذج الإرشادي القائم على ثنائية "الإدماج والمقاومةincorporation/resistance"، وإحلال نموذج آخر قائم على ثنائية "التفرج والأداءspectacle/performance"، الذي يمثل أرضية كل مستويات انخراط الناس في الأبعاد المختلفة لثقافة وسائل الإعلام. أما الثاني فهي مقاربة تحاول دراسة الجمهور بمعزل عن تركيز وسائل الإعلام، وتفتحها أمام تعقيدات ممارسات الجمهور في الحياة الاجتماعية، ويرى كولدري أن هذه المقاربة أكثر فائدة في الأوقات التي تتعرض فيها تفاعلات البشر مع وسائل الإعلام إلى تغييرات جذرية[١]. ويقترح تبني مقاربة للجمهور، تستند على نظرية للممارسة، هدفها طرح أسئلة مفتوحة حول ما يفعله الناس (الجمهور) وكيف يُصنِّفون ما يفعلونه، بغض النظر عن التصورات المسبقة التي تقرأ أفعالهم بشكل أوتوماتيكي خارجي بوصفها استهلاكًا[٢]. عرضتُ فيما سبق تصنيفين للمقاربات المختلفة للجمهور في إطار دراسات التواصل، وهناك تصنيفات أخرى تؤطر تاريخ بحوث الجمهور على نحو مختلف[٣]ومن الجلي أنّ بحوث الجمهور في إطار دراسات التواصل تقدم إسهامات شديدة الأهمية في بلاغة الجمهور. وقد سبق أن أشرتُ تحديدًا إلى أهمية مقاربة الجمهور النشط[٤]، ويمكن أن نضم إليها تيار دراسات جمهور وسائل الإعلام الشعبية. كذلك فإن الأفكار المتعلقة بالجمهور المهمّش، والجمهور المقاوم، تبدو مفيدة في تطوير البُعد المعياري لبلاغة الجمهور. أما أهم إسهامات بحوث الجمهور التي يمكن أن تفيد منها بلاغة الجمهور فربما كانت التراث الضخم من الدراسات الكمية للجمهور، والمنهجيات المتقدمة التي طورتها هذه المقاربات.

١-نفسه، ص ٢٠١٦.

٢-نفسه، ص ٢١٨.

٣- انظر على سبيل المثال، الدراسة المهمة لدينيس مكويل، التي تقترح وجود ثلاث نماذج إرشادية في دراسات الجمهور. يمتد الأول حتى ستينيات القرن العشرين، وهيمنت فيه نظرية للجمهور بوصفه شكلا جديدًا من التجمعات، لم يكن معروفًا قبل عصر الراديو والسينما والصحافة الجماهيرية. أما النموذج الثاني، فحفزته وسائل الإعلام الجديدة وبخاصة التلفزيون، التي "صنعت" نوعًا جديدًا من الجمهور، يتسم باتساع وتنوع هائلين، في حين حفزت وسائل الإعلام الجماهيريالنموذج الثالث، وأتاحت للجمهور أدوارًا غير مسبوقة. انظر:
McQuail. D. (2013). The Media Audience: A Brief Biography—Stages of Growth or Paradigm Change?,*The Communication Review*, 16: 1-2, 9-20، ص ١٠-١٢.

٤- انظر، بلاغة المخاطَب، مرجع سابق، ص٣٣.

لقد نشأت دراسات الجمهور تحت رعاية المؤسسات الإعلامية والسياسية والاقتصادية التي ترغب في تنمية أعمالها ومكاسبها؛ عبر جمع أكبر قدر ممكن من البيانات بشأن مستعملي "خدماتها"، وتحليلها. وسواء أكانت تلك المؤسسة صحيفة يومية، أم قناة تلفزيون، أم شركة أحذية تُعلن عن منتجاتها، أم جمعيّة سياسية،... إلخ، فإنها جميعًا كانت حريصة على فهم طبيعة الجمهور المستهلِك لمنتجاتها من حيث عمره ونوعه وتفضيلاته... إلخ؛ بهدف ضمان نجاح أعمالها. وتأسست بفعل هذا الحافز المادي أطر عدّة لتصنيف جمهور المستهلكين، وقياسهم، والتنبؤ بسلوكياتهم، "الاستهلاكية" تحديدًا[1] وفي الحقيقة، فإن هذا التوجه في دراسة الجمهور هو الأكثر هيمنة وشيوعًا في دراسات التواصل، وهناك في الوقت الراهن مؤسسات "بحثية" كاملة تختص بدراسة الجمهور من هذه الزاوية[2]. ومع التطور التقني المتسارع في العالم الراهن، ظهرت أدوات جديدة لقياس الجمهور مثل دراسة أنظمة قياس استجابة الجمهور Audience responses systems، وأنظمة تحليل المشاعر Sentiment Analysis Systems، التنبؤ بهذه الاستجابات أيضًا[3].

ظهرت بحوث الجمهور في إطار دراسات التواصل بوصفها نوعًا من المعرفة العملية، تخدم مؤسسات مهيمنة محددة، بواسطة تمكينها من التلاعب بالجمهور. ولم يكن من الغريب أن أكثر دراسات بحوث الجمهور في إطار دراسات التواصل حفّزتها، وموّلتها، ووجهتها كيانات اقتصادية وسياسية، تسعى للسيطرة على الجمهور وتوظيفه لخدمة مصالحها. ومن بين كمٍّ وافرٍ من العلوم الإنسانية التي تطورت في القرن الأخير، فإنني أظن أن دراسات جمهور المستهلكين من بين أكثرها إثارة لإشكاليات الأخلاق المعرفية. ويتجلى هذا المعضل الأخلاقي حين نقرأ – على سبيل المثال – مفتتح مجلد ضخم يتحدث عن مناهج قياسات الجمهور ودراسته، مبينًا للطلاب والباحثين أهمية دراسة الجمهور على النحو الآتي:

١-نظر على سبيل المثال، Webster, J. , Phalen, P. , &Lichty, L. (2005). *Ratings analysis: Theory and practice*. Routledge.

٢-مثل وكالة الجمهور The Audience Agency، ومن الشيق قراءة نوع الخدمات التي تقدمها لعملائها: https: //www. theaudienceagency. org/services/research

٣- قام سيلفيريا وآخرون (٢٠١٣)، بوضع تصور للتنبؤ باستجابات الجمهور لمحتوى الأفلام السينمائية. انظر، Silveira, F. , Eriksson, B. , Sheth, A. , & Sheppard, A. (2013). Predicting audience responses to movie content from electro-dermal activity signals. In *Proceedings of the 2013 ACM international joint conference on Pervasive and ubiquitous computing*(pp. 707-716). ACM.

"الجماهير مهمة للغاية في تشغيل وسائل الإعلام الجماهيري. فهم من يمولون هذه الصناعة، بواسطة شراء التذاكر، ودفع الاشتراكات، وتأجير شرائط الفيديو. وهم يُباعون للمعلنين مقابل مليارات الدولارات. إنهم مصدر القوة المالية والاجتماعية لوسائل الإعلام الجماهيرية"[1]. تصبح بحوث الجمهور وفق هذا التصور أداة من أدوات السوق. ولعل العبارة المكمّلة للعبارة السابقة هي: "الجمهور يُباع للمعلنين مقابل مليارات الدولارات، وباحثو الجمهور يبيعون الجمهور لوكالات الإعلان بملايينها. إننا نعرف حالات شتى تتحول فيها المعرفة الأكاديمية إلى سلعة على نحو حصري. وللأسف فإن القدر الأكبر من دراسات الجمهور في إطار دراسات التواصل مثال على ذلك. ولعل هذا أحد أهم الفروق بينها وبين بلاغة الجمهور؛ إذ إن هدف الثانية يتناقض تناقضًا كاملًا مع هدف الكم الأكبر من دراسات الجمهور في إطار دراسات التواصل؛ فهو يتمحور حول دعم سلطة الجمهور في مواجهة سلطة المؤسسات المنتجة للخطابات العمومية.

بالطبع حملت العقود الثلاثة الأخيرة تغييرًا في محفزات البحث في الجمهور في إطار دراسات التواصل، عرضتُ بعض ملامحه في الصفحات السابقة. وسوف أتوقف بالتحديد عند سلسلة من الدراسات المنجزة في الأعوام الخمسة الأخيرة لكونها تشترك مع بلاغة الجمهور في تقديرها لدور الجمهور في المجتمعات المعاصرة، وسوف أختتم عرضي لها بذكر ملامح أخيرة للتمايز بين دراسة الجمهور في إطار بلاغة الجمهور ودراسته في إطار بحوث التواصل.

تحولات الجمهور في عصر الفضاء الافتراضي

في مطلع عام ٢٠١٠ قامت المؤسسة الأوروبية للتعاون العلمي والتكنولوجي (COST) بتأسيس مشروع بحثي يمتد لأربع سنوات حول موضوع "تحول الجماهير، تحول المجتمعات Transforming Audiences, Transforming Societies". اشترك في المشروع البحثي عدد كبير من الباحثين من جامعات أوروبية، وصدرت عنه سلسلة من الكتب احتضنتها دار نشر روتليدجRoutledge. يهدف المشروع إلى دراسة التحولات الحادثة في وضعية الجماهير في المجتمعات المعاصرة، بفضل تكنولوجيا التواصل المستحدثة. لم يكن الدعم السخي الذي قدمته COST (وهي أكبر شبكة أوروبية للتعاون البحثي، وأقدمها) أمرًا غريبًا.

١- انظر، Webster,Phalen, &Lichty (2005)، مرجع سابق، ص ١.

يبدو الإنفاق السخي على البحوث التي تدرس التغيرات الحادثة في طبيعة جمهور الفضاء الإلكتروني، وصلاحياته، وقدراته، في المجتمعات الراهنة أمرًا مفهومًا تمامًا. فقد شهد العقدان الماضيان تحولًا جذريًا في طبيعة الجمهور، يمكن عدُّه وجهًا من وجوه تحوُّل جذري أشمل يجتاح المجتمعات الإنسانية الراهنة، حفزته وسائط التواصل الجماهيري غير التقليدية. ولا يقوم الربط بين تحولات الجمهور وتحولات المجتمعات على ادعاء مشوب بالمبالغة، بل يعكس واقعًا ملموسًا، تتعرض فيه بنية مجتمعات إنسانية عدّة لتغيرات شتى بفضل تغير طبيعة الجمهور. ولعلّ في الحركات الشعبية المحفّزة بتقنيات التواصل الاجتماعي في العالم العربي نموذجًا للتأثير الذي يمكن أن تُحدثُه الجماهير الغفيرة، حين تمتلك القوة والإرادة للتعبير عن الذات.

يدفع الإدراك المتعاظم لأهمية الجمهور في المجتمعات المعاصرة باتجاه مزيد من الاهتمام الأكاديمي بالجمهور في إطار دراسات التواصل. وتتزايد أهمية ما يُنجز في هذا الحقل المعرفي بالنظر إلى ثرائه الإجرائي والنظري. وتتمثل الإضافة التي ربما تقدمها بلاغة الجمهور لبحوث الجمهور في إطار دراسات التواصل في ثلاثة أمور على وجه التحديد:

١- الإفادة من بعض المفاهيم النظرية التي تُقدمها بلاغة الجمهور، وبخاصة في بُعدها المعياري، مثل مفهوم الاستجابات البليغة.

٢- إتاحة المجال لإعادة دراسة تاريخ التواصل الإنساني من منظور التفاوض والجدل بين خطاب المتكلم والجماهير.

٣- الأسئلة المعرفية وثيقة الصلة بالدرس البلاغي؛ وتحديدًا السؤال الجوهري حول العلاقة بين الخطاب والأداء من ناحية واستجابات الجمهور من ناحية أخرى. وهي علاقة تُستكشف بالأساس عبر تحليل دقيق لعمليتي الإقناع والتأثير البلاغيتين.

وسوف تتكشف خصوصية المقاربة البلاغية للجمهور على نحو أفضل من خلال تقديم تحليل معمق لموقع المخاطَب/ الجمهور، من بعض أهم الإسهامات البلاغية التراثية والمعاصرة.

٣. دراسة الجمهور بين بلاغة الجمهور ونظريات البلاغة الكلاسيكية والمعاصرة

أتناول في هذا القسم من البحث دراسة الجمهور في إطار دراسات البلاغة الغربية والعربية. وينقسم ثلاثة أقسام، أعالج في أولها دراسة الجمهور في التراث اليوناني البلاغي، ثم

أخصص القسم الثاني لمثيله العربي، في حين أتناول في القسم الثالث الدراسات البلاغية المعاصرة للجمهور. وسوف أركز في مناقشتي على ملامح التلاقي والتباين بين التصورات المختلفة للجمهور، وسبل مقاربته.

البلاغة والجمهور

ترى شارون جارفيس أن الجمهور كان على مدار زمن طويل محور التراث البلاغي[١]. وتبدو هذه الملاحظة محفزة على مزيد من البحث في خصوصية المعالجة البلاغية للجمهور. وعلى الرغم من أن الهدف الأساس لهذا البحث هو تقديم تمييزات أولية بين موقع المخاطَبين في البلاغات الكلاسيكية والمعاصرة من ناحية وموقعهم في بلاغة الجمهور؛ فإن هذا الهدف لا يتحقق دون تتبع دقيق لأوجه الانشغال البلاغي بالمخاطَبين قديمًا وحديثًا. وسوف أقسم هذا الجزء ثلاثة أقسام؛ يختص الأول بدراسة موقع الجمهور في التراث البلاغي اليوناني؛ ويعالج الثاني دراسة الجمهور في التراث العربي؛ في حين يُخصص الثالث لتجليات الاهتمام بالجمهور في البلاغة المعاصرة؛ وبخاصة توجه بيرلمان وزملائه، المعروف بالبلاغة الجديدة New Rhetoric.

٣-١- الجمهور في البلاغة اليونانية الكلاسيكية

نشأ علم البلاغة في اليونان القديمة بوصفه معرفة عملية، تستهدف تمكين المتكلمين من إقناع المخاطبين والتأثير فيهم بواسطة الكلام. أمّا البلاغة نفسها بوصفها قُدرةً، أو فنًا، أو مهارةَ، فقد عرّفها أفلاطون بأنها "فن قيادة النفوس بواسطة الأحاديث"[٢] أو "القدرة على إقناع المرء بواسطة الحديث"[٣]، وعرّفها أرسطو بأنها "قوة تتكلف الإقناع الممكن"[٤]. ومن الجلي أن ثمة حضورًا غير معلن للمخاطَب في التعريفين، وأمثالهما من تعريفات أخرى عديدة. فتعريف أفلاطون يُحيل مباشرة إلى المخاطَبين بوصفهم غاية البلاغة بأسرها؛ إذ تقتصر مهمة البلاغة (وماهيتها) على السيطرة على نفوسهم؛ وقد استكمل أفلاطون بالفعل تعريفه الثاني بذكر نماذج

١- انظر: جارفيس (٢٠١٦)، مرجع سابق، ص ٢١٥.

٢- أفلاطون. (٢٠٠٠). محاورة فيدروس، ترجمة أميرة حلمي مطر، دار غريب، ص ٨٥.

٣- أفلاطون، (١٩٧٠). محاورة جورجياس، ترجمة محمد حسن ظاظا، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، ص ٤٠.

٤- الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تحقيق وتعليق عبد الرحمن بدوي، دار القلم، الكويت، ص ٩.

لهؤلاء المخاطبين (القضاة في المحاكم، والشيوخ في مجالس النواب، والمواطنين العاديين في التجمعات العامة... إلخ[1]. وبالمثل، فإن المستهدَفين بقوة إنجاز الإقناع في مفهوم أرسطو هم المخاطبون. ويمكننا أن نقول باطمئنان إنّ معرفة المخاطَب ركن أصيل من أركان النظريات البلاغية الكلاسيكية. ونظرًا لمحورية المخاطَب في التصورات الكلاسيكية اليونانية، فسوف أعالج بالتفصيل الموقف من الجمهور لدى أهم إسهامين بلاغيين يونانيين؛ هما الإسهام الأفلاطوني والأرسطي.

٣-١-١- جمهور البلاغة عند أفلاطون: الفرائس المروّضة

انتقد أفلاطون البلاغة بقسوة في محاورة جورجياس[2]. فقد صاغ تصورًا للبلاغة بوصفها ممارسة كلامية هدفها التلاعب بما يعتقد فيه الجمهور لتحقيق أغراض المتكلمين؛ السياسيين بخاصة. وأشار أفلاطون إلى "الجمهور" في سياقات عديدة من محاوراته عن البلاغة؛ وهي إشارات تنطوي غالبًا على دلالات سلبية، تتجلى بوضوح في الاستعارة الأساسية التي يتأسس عليها تعريف أفلاطون للبلاغة بأنها قيادة النفوس بواسطة الأحاديث؛ فالتعريف ينطوي على تشبيه للجمهور بأنه يقوم بدور الفريسة المروّضة في عملية قنص كلامي يقوم بها الصيادون (البلغاء)؛ إذ يروم الخطباء التحكم فيه والسيطرة على قيادِهِ. هذا التصور السلبي للجمهور، جعل أفلاطون يلخّص (على لسان سقراط)، هويّة الخطيب والجمهور بأنهما جاهل يتحدث أمام جهلة[3].

إضافة إلى وصف الجمهور استنادًا إلى استعارة القنص والترويض، استعمل أفلاطون مفهوم الجمهور ليُحيل إلى حشد كبير من المخاطبين يفتقد إلى معرفة لا يمكن أن يقدمها له الخطباء، وذلك في سياق حجاجه بأن البلاغة (كما يمارسها السفسطائيون) لا تُقدم للجمهور معرفة بل تغرس فيهم اعتقادًا:

١- نفسه، الصفحة نفسها.

٢- انظر تحليلا لأسباب هذا الانتقاد في: عبد اللطيف، عماد. (٢٠٠٨). موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياسوفيدروس، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، مجلد ٥، عدد ٣ (٢٠٠٨)، ص ص ٢٢٧-٢٤٤، و Vickers, B. (1990). *In Defence of Rhetoric*. Oxford: Oxford University Press, 1988.

٣- ينظر: أفلاطون، جورجياس، مرجع سابق، ص ٥٠.

كما يأتي على لسان سقراط: الخطيب لا يُعلِّم (الجماهير) في المحاكم والجمعيات (التشريعية) العدل والظلم، وإنما هو يُكسبها رأيًا. إذ واضح أنه سيستحيل عليه في مثل هذا الوقت القليل أن يُعلم جماهير عديدة كهذه مثل تلك الموضوعات العظيمة[١].

هذه الإشارة إلى التأثير السلبي للبلاغة مبثوثة في كل حنايا محاورة جورجياس؛ التي يُمكن عدُّها قصيدة هجاء لمخاطر الخطابة الشعبوية، من زاوية قدرتها على التأثير السلبيفي الجماهير، ولنقرأ مثلا هذه الفقرة:

الخطيب قادر من غير شك على أن يتكلم ضد أي خصم، وفي كل موضوع، على نحو يقنع الجمهور إقناعًا أفضل من غيره، وبحيث ينال من الجمهور، بكلمة، كل ما يُريد"[٢].

ويحضر الجمهور بوصفه مرمى تصويب المتكلم، وموضوعًا للتلاعب به وخداعه في محاورة فيدروس أيضًا. إذ ينتقد أفلاطون- بقسوة أقل هذه المرة- سعي الخطباء للسيطرة على الجمهور الجاهل. وينتقد عبارة فيدروس التي يقول فيها إن "الخطيب لا يحتاج إلى أن يعلَم حقيقة العدالة، بل حسبه أن يعرف آراء الجمهور الذي سيكون له الحكم في موضوعه... فالمظهر لا الحقيقة هو مبدأ الاقتناع"[٣]. وعلى الرغم من أن أفلاطون ينتقد الخطباء (السفسطائيين) لتلاعبهم بالجمهور، فإنه يجعل من شرط تحليل نفسية الجمهور الخطوة الأولى نحو تحقيق خطابة (فلسفية) ناجعة[٤]. فالدراسة الجدية للخطابة لابد أن تبدأ "بوصف النفس بكل دقة،...، ومعرفة فعلها، وفيما تؤثر، وانفعالها، وبما تتأثر. ويذهب أفلاطون خطوة إضافية بالقول إنه يجب على الخطيب أن يصنف أحاديثه، وفقًا لأصناف مستمعيه، وتفسير "لماذا لا تتأثر بعض أنواع النفوس بنوع معين من الأحاديث، في حين تقتنع به النفوس الأخرى"[٥]. والجمهور يبدو في نظر أفلاطون عاجزًا عن تمييز الحقيقة من شبيهها (الزائف)، وهو يقول إن "المظهر ينطلي على الجمهور لمشابهته بالحقيقة"[٦].

يمكن، إذًا، أن نرصد موقفًا مزدوجًا من الجمهور عند أفلاطون؛ ففي سياق نقده للبلاغة السفسطائية يصوّر الجمهور بوصفه فريسة منقادة، لكنه حين يتناول كيفية إحداث تأثير في

١- ينظر: نفسه، ص ٤٤.
٢- نفسه، ص ٤٧.
٣- أفلاطون، فيدروس، مرجع سابق، ص ٤٨.
٤- فيدروس، ص ١٠٢.
٥- نفسه، ص ١٠٣.
٦- نفسه، ص ١٠٧.

الجمهور، يقدم عن طيب خاطر، النصيحة الذهبية نفسها التي يوجهها السوفسطائيون لطلابهم؛ "اعرفوا الجمهور جيدًا، وسيطروا على نفوسهم!". وفي الحقيقة فإن هذا الموقف المزدوج سوف يتواصل مع أرسطو؛ إذ يذهب تيندال إلى أن العديد من آراء أفلاطون حول الجمهور انتقلت إلى أعمال أرسطو؛ وبخاصة رأيه في المشاعر، وحديثه عن كون الألم واللذة من المحفزات المهمة. وكذلك في اتفاقهما بشأن كون فن الحديث الحقيقي يتطلب معرفة عميقة بأنماط الجمهور؛ حتى يتمكن المتكلم من بناء حجة مناسبة لكل نمط منها[1]. لكن الصحيح أيضًا أن أرسطو طور أفكار أفلاطون، وقدّم المقاربة الأكثر شمولا للجمهور في التراث البلاغي اليوناني، على نحو ما سأشرح بالتفصيل.

٣-١-٢- الجمهور في نظرية الخطابة الأرسطية

لقد حظي كتاب "في الخطابة/ البلاغة" لأرسطو بالاهتمام الأكبر من دارسي البلاغة لأكثر من ألفي عام. يُنظّر أرسطو في عمله للتواصل العمومي في أثينا القديمة؛ وبخاصة في سياقات ثلاثة هي سياقات التداول السياسي في البرلمان، والترافع القضائي في المحاكم، والاحتفالات الشعبية في الساحات العامة. ويركز على دراسة وسائل الإقناع، ومصادر الحجج، ومضامينها، وأساليب الخطابة. ومن المتوقع أن يحظى الجمهور بدور مهم في نظرية البلاغة عند أرسطو. وبحسب توماس فاريلFarrell فإنه وفقًا لأرسطو" لا وجود للخطابة/ البلاغة بدون نوع محدد من السامعين Hearer، هم من نعرفهم الآن بـ "الجمهور" audience"[2]. ويرى تيندال أن أفكار أرسطو عن الجمهور متوزعة في أعمال عدّة؛ منها كتاباه عن فني الشعر

1- Tindale CW. (2015). The Philosophy of Argument and Audience Reception. Cambridge University Press. p٥١.

٢- انظر، Farrell Thomas B1993. Norms of Rhetorical Culture. New Haven: Vale University Press.، ص ٨٩. ويؤثِر د. محمد العمري استعمال مصطلح (مستمَع)، مقابلا لمصطلح ((auditoireالفرنسي (Hearer) بالإنجليزية، أما الترجمات الإنجليزية الحديثة لبلاغة أرسطو فتستعمل مصطلح (جمهور (Audience، (انظر مثلا: Aristotle O & Kennedy GA(2006). On rhetoric: A theory of civic discourse. Oxford University Press. .

وأقترح أن يتبنى المترجمون العرب مصطلح الجمهور؛ لكونه أدق في التعبير عن مفهوم أرسطو، وعن المفهوم الراهن معًا. فقد كان أرسطو يقصد مجموعات من البشر تشارك بوصفها جمهورًا في حدث تواصلي ما. وهو المفهوم ذاته الذي نستعمله للإشارة إلى الجماهير الواقعية والافتراضية في الوقت الراهن.

والخطابة[1]. ويركز تيندال على دور الجمهور في تصور أرسطو للقياس الإضماري. كما يناقش تيندال وجهات نظر متنوعة بشأن حدود الدور الذي يقوم به الجمهور في التواصل البلاغي. ويميز بين موقفين متباينين لأرسطو؛ الأول يرى أن الجمهور فاعل في التواصل البلاغي، ويضرب على ذلك مثالًا مستمدًا من اعتراف أرسطو بدور الجمهور في فك شفرة القياسات الإضمارية. أما الموقف المناقض، فيرى في جمهور البلاغة كينونة سلبية، وهو موقف يتجلى في معيار نجاح المتكلم البليغ وفقًا لأرسطو؛ والذي يرتبط بتبني الجمهور لرؤية الخطيب ومنطقه وحججه[2]. يميز أرسطو أيضًا بين نوعين من الجمهور؛ الأول جمهور المقيّمين Judges، والثاني جمهور المتفرجين observers؛ فالسياسيون في البرلمان يقيّمون كلام الخطيب، بهدف اتخاذ قرارات تخص ما سيحدث في المستقبل، وبالمثل فإن المحلفين والقضاة يقيّمون كلام المتهمين والشهود في المحاكم؛ بهدف اتخاذ قرارات تخص ما حدث في الماضي. أما في الخطب الحفلية فإن الجمهور هو جمهور متفرج، يشاهد ما يحدث راهنًا[3].

فضلًا عمّا قدَّمه تندال، يمكن أن نضيف ثلاثة مواضع يقوم الجمهور فيها بدور مهم في صياغة أحد أبعاد نظرية أرسطو البلاغية:

أ- الجمهور وتحديد نوع الخطبة

يقوم الجمهور، وفقًا لأرسطو، بدور كبير في تحديد نوع الخطبة؛ "فبما أن أنواع السامعين عنده ثلاثة، فأجناس الخطابة هي، بالضرورة، ثلاثة"[4]. فجمهور القضاة أو المحلّفين يحدد نوع الخطابة بأنه خطبة قضائية، أما حين يكون الجمهور من مرتادي البرلمان، فإننا نكون أمام نوع الخطبة الاستشارية (السياسية). وأخيرًا، فإن جمهورًا من المتفرجين يُعطي للخطبة هوية احتفالية. يبدو هذا الربط بين الجمهور ونوع الخطابة مستندًا إلى الأدوار التي يمكن أن يقوم بها الأفراد. فالمواطن الأثيني العادي، كان باستطاعته أن يكون محلّفًا أو يشارك في أعمال البرلمان، وكان يُتوقع منه أن يقوم بهذه الأدوار العمومية خدمةً للمدينة. وأظن أن الربط بين نوع الجمهور ونوع الخطاب ينطوي على مخاطر متنوعة؛ ولنتخيل أن سياسيًّا يخطب في جمع يضم قضاة وسياسيين ومتفرجين عاديين، في ساحة مدينة، هل تكون خطبته سياسية أم قضائية أم حفليّة؟إن طبيعة

١- نظر، تيندال (٢٠١٥)، مرجع سابق، ص ٣٦.
٢- نفسه، ص ٤١-٤٤.
٣- نفسه، ص ٥١-٥٢.
٤- بنوهاشم، الحسين. (٢٠١٤). بلاغة الحجاج: الأصول اليونانية. دار الكتاب الجديد، ص ٢٣٠.

الجمهور (المتنوع) لا تحسم شيئًا، ومن ثمّ علينا أن نبحث عن سمات أخرى لتحديد الماهية (مثل طبيعة المتكلم، وموضوع الخطاب...). ومع ذلك، فإن إشارة أرسطو إلى دور الجمهور في تحديد نوع الخطبة، دالة على دور الجمهور في النظرية البلاغية الكلاسيكية.

ب- الجمهور وأساليب الإقناع

بخلاف دور الجمهور في تحديد ماهية الخطبة، فإن تصور أرسطو للجمهور يتركز على كون الجمهور هو الكيان المستهدف بالإقناع والتأثير. ففي تقسيمه لسبل الإقناع الثلاثة، يجعل السبيل الأول (اللوجوس) قرين التأثير في عقل الجمهور بواسطة الحجج العقلانية؛ في حين يتوجه اهتمام السبيل الثاني إلى مشاعر الجمهور للتأثير فيها، والسيطرة عليها (الباتوس). أما السبيل الثالث (الإيتوس)، وهو الإقناع المعتمد على صورة الخطيب ومصداقيته، فإنها تستهدف عقل المخاطَب ونفسه في الوقت ذاته.

ت- الجمهور وتكييف صورة المتكلم

كذلك يعطي أرسطو أهمية كبيرة لضرورة تكيُّف الخطيب مع جمهوره، حتى يتمكن من إقناعه. إذ يُخصص خمسة فصول من كتابه الثاني للحديث عن تطويع الصورة التي يرسمها المتكلم لنفسه أمام جمهور من الشباب، أو الشيوخ، أو الأثرياء، أو وجهاء القوم... إلخ[1].

يكشف تتبعنا السابق لأشكال اهتمام أرسطو وأفلاطون بالمخاطَب أنهما يُدركان المُخاطَب بوصفه غرض المتكلم، يُصاغ الكلام على نحو مخصوص ليتيسر قيادُه، وتُبنى الحُجج وتُختار لتسهيل إقناعه. ولم يُعن أفلاطون أو أرسطو بأشكال التفاعل التي يمكن أن تنشأ بين المتكلم والجمهور، ولم يوليا أدنى اهتمام لما يصدر عنه من استجابات أو ما قد يتمتع به من قدرة على الفعل. وفي حين تحدث أرسطو عن دور التراجيديا في إثارة مشاعر محددة في الجمهور، مثل الشفقة والخوف، فإنه لم يتحدث عن مظاهر تجلي هذه المشاعر علاماتيًا. ويبدو هذا فرقًا جذريًا بين بلاغة الجمهور ودراسة المخاطَب في البلاغة الكلاسيكية؛ فبلاغة الجمهور معنية بما يُنتجه الجمهور من استجابات لغوية وغير لغوية، ولم تكن هذه الاستجابات موضع أي فحص أو اهتمام من قبل أفلاطون أو أرسطو.

١- ينظر: كينيدي (٢٠٠٦)، مرجع سابق، ص ١٤٨-١٥٥.

٣-٢- دراسة الجمهور في التراث البلاغي العربي

لقد حاولتُ في دراستي المؤسسة لبلاغة الجمهور أن أناقش على نحو موجز موقع المخاطَب في النظرية البلاغية الكلاسيكية العربية. وركزتُ على تفنيد الدعوى القائلة بأن البلاغة القديمة احتفت بالمخاطَب؛ مبرهنًا أن الاهتمام بالمخاطَب في البلاغة العربية القديمة يستهدف تحقيق غاية المتكلم في إنجاز أقصى تأثير لكلامه أو نصه. وتعزز معرفة حال المخاطَب (نوعه، عمره، مكانته، معتقداته المسبقة، موقفه من الكلام ترحيبًا أو تشككًا أو إنكارًا،... إلخ) من إمكانية تحقيق أهداف المتكلم، بواسطة تطويع الكلام ليتناسب على أفضل نحو مع حال المخاطب[١]. وكانت دراسة المخاطَبين في البلاغة العربية جزءًا من دراسة الأحوال أو المقامات، التي (يجب أن) يتكيف معها الكلام ليكون بليغًا. وقد كان هذا الإدراك لانشغال البلاغة القديمة بتحقيق أغراض المخاطِبين، والنظر إلى المخاطَبين على أنهم فرائس للقنص، ومرمى للتصويب، هو حافزي الأساسي إلى اقتراح توجه بلاغة الجمهور. ويمكن بكل تجرُّد النظر إلى بلاغة الجمهور بوصفها "تصحيحًا" ضروريًا لمسار علم البلاغة، وهدفها تدشين مسار معكوس لدراسة البلاغة في المجتمعات الإنسانية. مسار يجعل استجابة المخاطَب (الجمهور) محور البحث والمعالجة. وكما أجليتُ فيما سبق الفروق الجذرية بين المقاربة التي تتبناها بلاغة الجمهور لدراسة المخاطَبين، ومقاربة البلاغة الغربية الكلاسيكية، سوف أقوم في الفقرات الآتية بتحديد أهم مظاهر اهتمام البلاغة العربية بالمخاطَبين، وتحديد الفروق بينها وبين بلاغة الجمهور.

٣-٢-١ الكلام والمتكلم... ثم المخاطَب: محاور الاهتمام في التراث البلاغي العربي

يتأسس الفعل البلاغي على تواصل بين متكلم ومخاطَب غايته الإقناع والتأثير. وقد أولَتْ البلاغة العربية اهتمامها الأساسي لأداة هذا التفاعل؛ أي اللغة والأنظمة العلاماتية الأخرى (الإشارة، الحركة، الصورة... إلخ). فكرّست عنايتها لتحليل الكلام والنصوص البلاغية ومَعْيَرتها، سواء على مستوى التراكيب (وقد اختص علم المعاني والبديع لاحقًا بدراستها)، أو على مستوى طبيعة الدلالة على الواقع من زاوية الحقيقة والمجاز (وقد اختص علم البيان لاحقًا بدراستها)، أو على مستوى المعاني ومصادر الحجج (ولم يطوروا علمًا خاصًا لدراستها). وجاء المتكلم في المرتبة الثانية بعد الكلام والنص من حيث درجة اهتمام البلاغيين العرب به؛ فقد وضعوا معايير لصوته، وهيئته، وحركته، وثقافته... إلخ (وكتاب البيان والتبيين كنز في هذا

١- ينظر: عبد اللطيف، ٢٠٠٥، مرجع سابق، ص١٤-١٥.

المجال). وينسجم التركيز التراثي على ثنائية الكلام والمتكلم مع تعريفهما للبلاغة والفصاحة، وقصرهما على كونها فقط نعتٌ للكلام والمتكلم[١].

جاء المخاطَب في المرتبة الأخيرة من اهتمام البلاغيين العرب بعد الكلام والمتكلم. وعلى الرغم من أن البلاغيين العرب لم ينسبوا للمخاطَب بلاغةً[٢]، ولم يُفردوا لدراسته فصولًا، أو يخصوه بمبحث مستقل، فإنهم قدّموا بشأنه إشارات، وأفكارًا، وملاحظاتٍ جديرة بالاهتمام. لقد حللتُ فيما مضى الدوافع المحفّزة على دراسة المخاطَب في التراث البلاغي العربي، وارتباطها الوثيق بهدف تحقيق أغراض المتكلم، بوصفه الغاية الأساسية لعلم البلاغة[٣]. وسوف أستكمل مسعى الإحاطة بطرق معالجة الجمهور في البلاغة العربية، بواسطة بلورة بعض أهم أشكال الاهتمام بالمخاطَب في البلاغة العربية.

أولًا: تكييف الكلام بحسب الجمهور: مقتضى الحال ومراعاة المخاطَب

تظهر عناية البلاغة العربية بالمخاطَب جلية منذ العتبة الأولى للعلم؛ أي تعريف مادته. إذ ترتكز حزمة من تعريفات البلاغة في التراث العربي القديم على المخاطَب بوصفه محور الفعل البلاغي. ومن أبرز هذه التعريفات قول العسكري: ((البلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى قلب السامع، فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك، مع صورة مقبولة، ومعرض حسن))[٤]. وهو تعريف يجعل من التأثير في المخاطَب حدًّا مميزًا للبلاغة. وقد استقر البلاغيون المتأخرون على تعريف بلاغة الكلام بأنها ((مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته))[٥]. وعلى الرغم من أنهم عرّفوا الحال بأنها ((الداعي

١-انظر على سبيل المثال، القزويني، محمد بن عبد الرحمن. (ت ٧٣٩). الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، نشر دار الجيل، بيروت، ط٣، ص ١٩.

٢-كان بحثي المعنون بـ"بلاغة المخاطَب" – المنشور ضمن هذا الكتاب – محاولةً لتجسير هذه الفجوة، ليس في البلاغة العربية وحدها وإنما فيما اطلعت عليه من بلاغات أخرى مثل البلاغة اليونانية والمصرية القديمة والهندية. واقترح البحث تأسيس توجه بلاغي معني ببلاغة المخاطَب (الجمهور لاحقًا)، في مواجهة بلاغتي الكلام والمتكلم.

٣- نظر، بلاغة المخاطَب، مرجع سابق، ص ١٦-١٧.

٤- انظر، العسكري، أبو هلال. (ت ٣٩٥). كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. تحقيق، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٩٥٢، ص ١٠.

٥- انظر، القزويني، الإيضاح، مرجع سابق، ص ٤١.

للمتكلم إلى إيراد الكلام على وجه مخصوص))[1]، فإن وضعية المخاطَب هي جزء من المقتضيات والأحوال التي أكد علم البلاغة على ضرورة مراعاتها.

لقد استأثرتْ قوائم الإرشادات المتعلقة بضرورة مراعاة حال المخاطَب بجُل العناية التي وجهها البلاغيون العرب لدراسة المخاطَب. ويبدو هذا مفهومًا في ضوء الوظيفة الأساسية لعلم البلاغة في توجهها الإنشائي؛ أعني تحقيق غايات المتكلمين، وإنجاز أغراضهم المستهدفة من الخطاب[2]. وقد حفلتْ كتب التراث البلاغي بإشارات متعددة إلى أوجه مراعاة المخاطَب في التراث البلاغي، تتضمن إرشادات للمتكلمين بشأن ضرورة مراعاة الحالة النفسية والثقافية والاجتماعية والطبقية للمخاطبين. وعلى سبيل المثال، تناول الجاحظ أبعادًا مختلفة من مراعاة حال المخاطَب، مشيرًا إلى ضرورة مراعاة الخطيب لحال السامع "خاصة مكانته في السُلَّم الاجتماعي، وتعليمه"[3]، ومراقبة حاله من النشاط للاستماع أو الملل[4]، ومراعاة المقام[5]، وتقسيم مستويات الكلام والمعنى بحسب طبقات المستمعين (الخاصة والعامة وخاصة الخاصة)[6]. كما تحدث البلاغيون اللاحقون عن ضرورة تكييف الأساليب لتتوافق مع الموقف الفكري للمخاطَب، على نحو ما رأينا في تقسيمهم لأنواع الخبر بحسب موقف المخاطَب؛ تصديقًا، وتشككًا، وإنكارًا[7]. وقد تتبع كريم الخالدي جذور مراعاة المخاطَب في التراث البلاغي، مبتدئًا بالكتاب لسيبويه. وقدم لائحة بالظواهر النحوية والبلاغية وثيقة الصلة بالمخاطَب مثل النداء، والاختصاص، وعِلم المخاطَب أو السامع[8].

تحتاج هذه الإشارات المتناثرة في متن التراث البلاغي إلى دراسة شاملة تتتبع جُل تجليات العناية بالمخاطَب، وتؤطر المعايير التي تستند إليها، وتستكشف علاقاتها بالسياقات الاجتماعية

١- نفسه، الصفحة نفسها.
٢- انظر، بلاغة المخاطب، مرجع سابق، ص ١٢-١٣.
٣- نفسه، ج١، ص ١٠٠.
٤- نفسه، ج ١ ص ١٠٤.
٥- نفسه، ج١ ص ١١٦.
٦- نفسه، ج١ ص ١٣٦، و١٣٨-١٣٩.
٧- انظر، السكاكي، أبو يعقوب. (ت ٦٢٦). مفتاح العلوم. ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب اللبنانية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧، ص ١٧٠-١٧١.
٨- انظر، الخالدي، كريم حسين. (٢٠٠٢). مراعاة المخاطب في الأحكام النحوية في كتاب سيبويه. مجلة المورد، العراق، مج ٣٠، عدد ٣، ص١٧-٣٠.

والمعرفية وثيقة الصلة. وعلى الرغم من أهمية هذا البُعد من أبعاد اهتمام البلاغة العربية بالمخاطَبين فإنه لا يُمثل محور اهتمامنا هنا لكونه موضوعَ اهتمام محوري في البلاغات الإنشائية. وهو يشترك في ذلك مع بُعد آخر من أبعاد اهتمام البلاغيين العرب القدماء بالمخاطبين؛ هو التأثير الذي (يُحتمل) أن تُحدثه الأساليب البلاغية في نفوس الجماهير.

ثانيًا: دراسة أثر الأساليب في المخاطَبين

قدمت البلاغة العربية إسهامات شديدة الجذرية لعلم البلاغة، تجعلها تتبوأ مكانة مميزة بين بلاغات الأمم الأخرى. وتُعدُّ قائمة الأساليب البلاغية، والتحليلات المرتبطة بدراسة وظائفها النصيّة وغير النصيّة، من بين أهم هذه الإسهامات العربية. وفيما يتعلق بدراسة المخاطَب تحديدًا، فقد اهتم البلاغيون العرب بأثر الأساليب اللغوية في المخاطَبين، واستخلصوا وظائف عامة وخاصة للأساليب. واقترحوا أن الأساليب تُحدث تأثيرات مرغوبة أو غير مرغوبة في نفوس المتلقين. فعلى سبيل المثال، نسبوا لأسلوب الالتفات، وأساليب الخروج على مقتضى الظاهر عمومًا وظائف تخص المخاطَب مثل التطريب، والتنشيط، وخوف الإملال، وغيرها[1].

كما اهتموا بتسجيل بعض الاستجابات الفعلية للمخاطبين في سياقات تواصل عمومية، وبخاصة حين يكون المخاطبون من الشخصيات التاريخية المؤثرة، كما هو الحال مثلا في وصف بكاء أبي بكر الصديق، وقولته: "فديناك بأنفسنا وآبائنا"، حين سمع النبي (ص) يقول في خطبة مرضه: "إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده"[2]. وقد سجلتْ كتب التاريخ روايات لسلسلة خطب ألقاها نخبة خطباء العرب أمام كسرى ملك الفرس قبل الإسلام، فيما يُعرف بـ"وفود العرب على كسرى". وحفلتْ هذه الروايات بتعقيبات كسرى على كل خطيب،

١- ينظر حصرًا لبعض هذه الوظائف ضمن: عبد اللطيف، عماد. (٢٠١٤). تحليل الخطاب البلاغي. كنوز المعرفة، الأردن، ص ١١٨-١٢٣.

٢- صفوت، أحمد زكي. (١٩٣٣). جمهرة خطب العرب، مصطفى البابي الحلبي، ج١، ص ٦٠. والحديث الشريف ورد في صحيحالبخاري، حديثرقم ٣٩٠٤؛ وصحيح مسلم، حديث رقم ٢٣٨٢. انظر: http://hadithportal.com/hadith-478&book=1.

وهي أشكال من التفاعل بين الخطيب والمخاطَبين، تستحق دراسة منفصلة من منظور بلاغة الجمهور[1].

علاوة على ما سبق، هناك منظور ثالث في دراسة المخاطَب في البلاغة العربية، هو الأكثر أهمية لهذه الدراسة. وهو منظور غير تقليدي، لم يحظ باهتمام الباحثين، وسأقدم تفسيرًا لذلك في سياق معالجتي له.

٣-٢-٢- بلاغة الاستماع: ابن المقفع، وإرهاصات بلاغة المخاطَب

لقد بدأتُ هذا القسم بالإشارة إلى أن النعت بالبلاغة في التراث العربي اقتصر على الكلام والمتكلم. ولم يتجاوزه إلى الطرف الثاني الأهم من أطراف عملية التواصل؛ أعني المخاطَب. ومع ذلك، فإن هناك حالة واحدة وحيدة، استُعمل فيها النعتُ بالبلاغة لا ليصف المخاطَب، وإنما ليصف فعلا من الأفعال التي يقوم بها؛ أعني فعل الاستماع، لنجد أنفسنا أمام مركب إضافي مثير للاهتمام هو: "بلاغة الاستماع".

يُنسب الربط بين فعل الاستماع، ونعت البلاغة إلى ابن المقفع في تعريفه الشهير للبلاغة. ويرد النص المنسوب إلى ابن المقفع – أوّل ما يرد – في البيان والتبيين، ويورده الجاحظ عقب تقديم تعريفَيْ العتابي وعمرو بن عبيد للبلاغة. يقول: "وقال إسحاق بن حسان بن قوهيّ: لم يفسّر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط. سئل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى. والإيجاز، هو البلاغة"[2].

١- انظر هذه السلسلة المثيرة للاهتمام من الخطب، ضمن: صفوت (١٩٣٣)، مرجع سابق، ص ١٥-٣٠.

٢- الجاحظ، عمرو بن بحر. (ت ٢٥٥ هـ). البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ج١، ص ١١٤.

ولم يعلق الجاحظ على عبارة ابن المقفع، ولم يتتبع مصدرها[٣]، أو يشرح فهمه لها، أو يعقب على كيف يمكن أن تكون البلاغة في الاستماع أو نحوه. فما إنْ ينتهي اقتباسه السابق، حتى يبدأ في اقتباس أقوال أخرى لابن المقفع تتضمن تمييزًا بين أنواع الخطابة، والخصائص الأسلوبية لكل منها؛ وبخاصة خطب الصلح والنكاح، ثم ينتقل إلى موضوع آخر هو الاستشهاد بالقرآن والشعر في أنواع الخطب المختلفة، ثم ينقله الاستطراد إلى معالجة موضوع مغاير هو جهارة الصوت والتشدق في الخطب. ولا يعود الجاحظ إلى نص ابن المقفع ثانية على مدار كتاب البيان والتبيين أو الحيوان أو أيًّا من رسائله، أو أعماله الأخرى. وكنا بحاجة إلى الانتظار لما يزيد عن قرن من الزمان لنصادف شرحًا لهذه العبارة عند أبي هلال العسكري في كتاب الصناعتين.

أورد أبو هلال نص ابن المقفع كاملا، منقولا فيما يبدو عن البيان والتبيين، دون إحالة إلى المصدر الوسيط على نحو ما هو مألوف في كتاب الصناعتين. لكنّ أبا هلال يُفرد مساحة كبيرة لنص ابن المقفع؛ إذ يقوم بشرح كل تعريف من تعريفات البلاغة الواردة في نص بن المقفع بشكل تفصيلي.

"وقول (ابن المقفع): ((ربما كانت البلاغة في الاستماع»، فإنّ المخاطب إذا لم يحسن الاستماع لم يقف على المعنى المؤدّي إليه الخطاب. والاستماع الحسن عونٌ للبليغ على إفهام المعنى. وقال إبراهيم الإمام: حسبك من حظّ البلاغة ألّا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى

٣- يُحتمل أن يكون ابن المقفع قد تأثر في تصوره لبلاغة الاستماع بالثقافات الشرقية التي اطلع عليها، ونقل عنها إلى بعض أعمالها إلى العربية، لا سيما ثقافة فارس والهند. وقد حاولتُ تتبع جذور الفكرة في هاتين الثقافاتين فلم أعثر على دليل. لكن ما أثار دهشتي أن ارتباط البلاغة بالاستماع حاضر بقوة في بلاغة أخرى قديمة وعريقة؛ هي البلاغة الصينية. وفي الحقيقة، فإن أحد التصورات الراسخة للبلاغة الصينية هي أنها "فن للاستماع"، على نحو ما يتضح بجلاء في أقدم كتاب صيني في البلاغة؛ أعني كتاب غوجوزي Guiguzi الذي يُنسب لكاتب وسياسي صيني يُقال إنه عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. لمزيد من المعلومات حول تصور البلاغة الصينية بوصفها استماعًا يمكن الرجوع إلى دراسة Gentz, J. (2014). Rhetoric as the Art of Listening: Concepts of Persuasion in the First Eleven Chapters of the Guiguzi. AsiatischeStudien-ÉtudesAsiatiques, 68 (4), 1001-1019. وقد نُشرت ترجمة إنجليزية لكتاب Guiguzi، مصدرة بشرح وافٍ أواخر عام ٢٠١٦.
انظر: Wu, H. , & Swearingen, C. J. (Eds.). (2016). "Guiguzi," China's First Treatise on Rhetoric: A Critical Translation and Commentary. SIU Press. ونظرًا لأن ابن المقفع لم يشرح مقصوده من تعبير "بلاغة الاستماع"، فليس بوسعنا تحديد مدى تطابق فهمه لها مع ما تقدمه البلاغة الصينية القديمة.

الناطق من سوء فهم السامع. وقال الهندي أيضا: البلاغة وضوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقول عبيد الله بن عتبة: البلاغة دنوّ المأخذ، وقرع الحجة، وقليل من كثير))[1].

أول ما نلاحظه في تعليق العسكري على عبارة ابن المقفع هو أنه أجرى عليها تحويلا لغويًا شديد الأهمية. فقد أعاد صياغة نص ابن المقفع، بواسطة التركيب والإضافة. أما التركيب فيظهر في جمعه بين البلاغة والاستماع بعد تفرقهما في النص الأصلي بسبب عطف الجمل المتتابعة، "منها (البلاغة) ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع". لكن التغيير الأكثر أهمية في النص يتمثل في تغيير جهة النص، بواسطة إضافة أداة تخفيف اليقين "ربما". وتُستعمل أدوات تعديل الجهة modality، لتغيير وصف العالم بشكل أساسي[2]. والإضافة المتمثلة في كلمة "ربما" هدفها نقل النص من دائرة الإخبار عن موجود بشكل قاطع إلى دائرة الإخبار عن موجود بشكل محتمل. ويوحي هذا الاستعمال لـ"ربما" بأن العسكري يقطع بوجود احتمالي لبلاغة استماع، حاول في شرحه للعبارة أن يستكشف مكامنها، ويجلوها للعيان. وتلك فيما يبدو مهمة غير يسيرة؛ إذ إن كتب البلاغة قبله ركزت على كون "البلاغة" نعتًا للكلام على سبيل الحقيقة، وللمتكلم على سبيل المجاز. أما كونها نعتًا لفعل مثل فعل الاستماع فقول عابر لابن المقفع، يحتاج إلى جهد تأويلي لتفسيره وتبريره. وقد وجد العسكري في الاستماع بوصفه النشاط الذي يبذله المتلقي لإنتاج المعنى بغيته. فرَبَط بين بلاغة الاستماع وقدرة المتكلم على إنتاج معنى المستَمَع إليه. وهو يجعل البلاغة بهذا القول شركة بين المتكلم (صاحب المعنى المؤدِّي إليه الخطاب بحسب العسكري)، والمخاطَب (الواقف على هذا المعنى). وقد استعمل تعبير "العون"، أي السند والداعم، لوصف العلاقة بين المتكلم والمخاطَب، مؤكدًا أن "الاستماع الحسن عون للبليغ على إفهام المعنى".

أورد العسكري – بعد شرحه لما يُمكن أن تَكونَه بلاغة الاستماع – جملة من الاقتباسات وثيقة الصلة بتوضيح التفاعل بين المتكلم والمخاطَب؛ أولها قول مشهور لإبراهيم الإمام: "حسبك من حظّ البلاغة ألّا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم

١- العسكري، أبو هلال. (ت ٣٩٥). كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. تحقيق، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٩٥٢، ص ١٦.

٢- لمزيد من التحليلات لدور أداوت تغيير الجهة في صياغة الخطاب يمكن الرجوع إلى: Lillian, D. L. (2008). Modality, persuasion and manipulation in Canadian conservative discourse. Critical Approaches to Discourse Analysis across Disciplines, 2(1), 1-16.

السامع". وعبارة الإمام تشير إلى مشكلات انهيار التواصل بسبب قصور المتكلم أو السامع في أداء دوره في عملية التواصل؛ المتكلم بسبب عيوب الإفهام، والمخاطَب بسبب عيوب الفهم. ومن الواضح أن الإمام يتحدث عن الحد الأدنى من الكفاءة البلاغية، وهو حد الإفهام الأساسي. وفحوى قول الإمام أن البلاغة حظوظٌ؛ أي أقدار ومستويات. المستوى الأساسي فيها هو الإفهام، وفي حين أشار الإمام على سبيل السلب إلى مستويات أقل تتمثل في سوء الفهم أو الإفهام، فإنه لم يشر إلى المستويات الأعلى التي تتمثل في الإقناع والتأثير والبيان... وصولا إلى الإعجاز.

لم يكن الاقتباسان التاليان للعسكري بعيدين عن فكرة دور المخاطَب في العملية البلاغية؛ فالقول المنسوب إلى عالم بلاغة هندي مجهول "البلاغة وضوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة"، يتضمن كفاءات يتمتع بها المتكلم، تجعله قادرًا على إفهام المخاطَب. ففي وضوح الدلالة وحسن الإشارة تيسير لعملية إفهام المخاطَب، وتقليص لاحتمالات سوء الفهم والإفهام. أما قول عبيد الله بن عتبة، فيتضمن معيارًا آخر وثيق الصلة بالمخاطَب هو "دنو المأخذ"، والذي يستعمل استعارة مفهومية فيزيقية لوصف القدرة على فهم المعنى، هي استعارة "المعاني أماكن"، منها ما يقرب وما يبعد. ويجعل الكفة لصالح المعاني القريبة. وهو معيار سوف يتبلور على نحو أكثر تفصيلا في إطار التمييز بين توجهات الشعرية العربية، على نحو ما نرى في مفهوم عمود الشعر[1].

لم تجد إشارة ابن المقفع الموحية الغامضة، ولا شرح أبي هلال الذكي المختزل لها، مَنْ يتلقفها وينميها. وتوارى مقترح نعت الاستماع بالبلاغة، في ظل هيمنة التصور السكاكي الذي ينسب البلاغة للكلام والمتكلم فحسب. ولو أن هذه الملاحظة وجدت من يهتم بها في زمن مبكر، ويبذل جهدًا في تطويرها، لربما توصلت البلاغة العربية إلى تأسيس بلاغةٍ للمخاطَب منذ زمن بعيد. وعلى الرغم من أن تلك الإشارة إلى بلاغة الاستماع تبدو عابرة وفقيرة، فإننا يمكن أن نَعُدَّها إرهاصة مبكرةً لبلاغة الجمهور، أو متكأً تاريخيًا لها.

١ – يرد مفهوم "قرب المأخذ" في الصياغات المبكرة لعمود الشعر عند الآمدي: يقول: "وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حُسن التأتي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام". الآمدي، أبو القاسم. (ت ٣٧٠هـ). الموازنة بين الطائيين. تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د. ت. ج١، ص ٤٢٣.

٣-٣- دراسة الجمهور بين بلاغة الجمهور ودراسات الحجاج المعاصرة: في نقد مفهوم الجمهور الكُلّي Universal Audience لبيرلمان

انشغلت البلاغة بدراسة الحجاج لقرون طويلة. ويرى كريستوفر تيندال أن نظريات الحجاج صرفت اهتمامها إلى الحجة المنتَجة بواسطة المتكلم، على حساب الاهتمام بالجمهور الذي توجه إليه هذه الحجة[١]. ويُفصّل تيندال هذا الرأي من خلال تتبع موقف دارسي الحجاج من الجمهور، مشيرًا إلى أن دراسات المنطقيين الشكلانيين للحجاج متضاربة بشأن الدور الذي يلعبه الجمهور في الحجاج، إلى حد أن بعضهم يتشكك في جدوى التركيز على الجمهور[٢]. وتُعد إسهامات بيرلمان وتيتيكا فيما يُعرف بالبلاغة الجديدة، من الإسهامات الحجاجية المهمة في دراسة الجمهور في النصف الثاني من القرن العشرين.

ناقش بيرلمان مفهوم الجمهور في سياق دراسته للخصائص التي تجعل من حجةٍ ما حجة ناجعة. وعلى الرغم من أنه أفرد للجمهور اهتمامًا أكبر من نظرائه من دارسي الحجاج، فإن موضوع اهتمامه الأساس هو البناء الشكلي للحجج. قدم بيرلمان وتيتكا مراجعة جذرية لمفهوم الجمهور في البلاغة الأرسطية. وبدلا من مفهوم أحادي للجمهور بوصفه المقصود بالإقناع عند أرسطو ميزا بين ثلاثة أنواع من الجمهور "ففي أحاديث الذات مع نفسها، يُمكن أن نُعامل أنفسنا بوصفنا جمهورًا، أو يمكننا أن نحاجج شخصًا آخر معينًا في موقف جدلي، أو يمكننا أن نتوجه بكلامنا إلى أي "أشخاص متعقلين"، ونضع في أذهاننا جمهورًا كُليًّا""[٣]. ويلاحظ تيندال أن بيرلمان قد حاول في عمل لاحق تحديد مفهوم الجمهور الذي يصفه بأنه "من يتمحور حوله الحجاج". وينقل سلسلة من الأسئلة التي تحاول الإمساك بمفهوم الجمهور "هل الجمهور هو كل شخص يسمع خطبة؟هل هو محاوِر في مقابلة يرد على أسئلة محاوره؟أم هو الجمهور الأوسع الذي سيقرأ المحاورة أو يسمعها؟[٤] ويجيب بيرلمان عن هذه التساؤلات بقوله إن الجمهور ليس هو بالضرورة من يوجه إليهم الخطاب "بل الجمع الذي يريد المتكلم التأثير فيه بواسطة حجته[٥].

١- ينظر: Tindale, C.W. (2015). *The Philosophy of Argument and Audience Reception*. Cambridge University Press.، ص ١٨.

٢- نفسه، ص ١٩.

٣- انظر، Perelman and Olbrechts-Tyteca 1969: 30

٤- انظر، Perelman, C. (1982). *The realm of rhetoric*, trans. William Kluback (Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1982), 5.، ص ١٣.

٥- نفسه، ص ١٤.

ويذكر تيندال أن الجمهور وفقًا لبيرلمان هم من يوجدون في ذهن المتكلم ممن يريد التـأثير فيهم فحسب. أما الجمهور الفعلي الذي يتلقى كلامه فهم ليسوا جمهورًا وفقًا لهذا التصور.

يبدو هذا التقييد فرقًا حاسمًا بين تصوّرَي بلاغة الجمهور والبلاغة الجديدة لمفهوم الجمهور. فالأولى تنظر للجمهور على أنه من يتلقى خطابًا ما بشكل فعلي، وهي، من ثمّ، لا تُلقي بالًا لذلك الكيان المتخيل الذي يوجد في ذهن الخطيب، والذي يُسميه بيرلمان "الجمهور". إن بلاغة الجمهور معنيّة بجمهور من لحم ودم، يوجد في فضاءات فعليّة حيّة، وليست معنيّة بجمهور مثالي، لا يعيش إلا داخل ذهن متكلم، لا نستطيع أن نسبر أغواره، ليجسد لنا تصوره لهذا الكائن المزعوم. وعلى نحو مشابه، فإن بلاغة الجمهور غير معنيّة بالنوعين الأوليين من الجمهور، فخطاب المتحدث لنفسه، على الرغم من أنه نوع من أنواع التواصل الإنساني، فإنه يقع خارج دائرة دراسة البلاغة عمومًا. فالبلاغة معنيّة بما يُنتَج بالفعل من كلام، تحدثًا كان أم كتابة. فالكلام الذي هو حبيس الصدور، وحوارات الأفواه المغلقة، لا يكتسب الوجود الفيزيقي (أو الحياة) التي تسمح بإخضاعه للدراسة البلاغية. أما المخاطَب في المحادثات الجدلية فهم لا يشكلون جمهورًا بالمعنى الذي تستعمله بلاغة الجمهور، إلا في حالة واحدة هي أن يكون التفاعل بين الشخصي جزءًا من تفاعل جماهيري عمومي، مثلما هو الحال -مثلا- مع حوار جدلي بين أستاذين أكاديميين على شاشة تلفاز، أو مناظرة بين شخصين في ساحة عمومية، كما هي الحال مع جمهور محاورات سقراط على سبيل المثال.

لقد تعرض مفهوم الجمهور الكوني لانتقادات عِدّة؛ منها نقد تيندال له بأنه يفوِّت إمكانية دراسة الجماهير الفعلية للحجج التاريخية. ويضرب تيندال مثالا على هذا القصور في المفهوم بأعمال أفلاطون مثلا، التي تُقرأ منذ ما يزيد عن ألفي وخمسمائة عام؛ ويتساءل "بماذا نُسمي قراء أفلاطون الذين يقرؤونه ويقتنعون بأفكاره، إن لم نستطع تسميتهم جمهورًا؟"[1]. كما ينتقد تيندال تقييد بيرلمان للجمهور، ويرى أنه ربما كان مفيدًا لو كنا نستطيع التيقن من نوايا المتكلم، لكن هذا أمر خلافي[2]. كما ينتقد تيندال القول المتطرف بأن الجمهور الكوني هو من إنشاء المتكلم، ويرى أنه على الرغم من أن المتكلم هو بالفعل من يتصور الجمهور الكوني، فإن تصوره لهذا الجمهور لابد

١- تيندال (٢٠١٥)، مرجع سابق، ص ٥٩.
٢- نفسه، الصفحة نفسها.

أن يرتبط بالواقع على نحو ما[1]. وفي الحقيقة فإن مجمل هذه الانتقادات تجعلنا متشككين في أهمية مفهوم الجمهور الكوني عندبيرلمان للبحث البلاغي.

نجد امتدادًا معاصرًا لهذا التصور للاهتمام بالمخاطَب بوصفه موضوعًا للإقناع في نظرية حجاجية معاصرة هي نظرية المناورة الاستراتيجية لفان إيميرن وزملائه[2]. وينقل تيندال عن فان إيميرن قوله: "كل آراء الجمهور وتفضيلاته التي تمثل نقطة انطلاق للخطاب الحجاجي يجب أن تُؤخذ في الاعتبار، إذا أردنا التأثير فيه بواسطة مناورة استراتيجية"[3]. ولا يختلف تصور إيميرن للجمهور عن تصورات بيرلمان؛ فكلاهما يُركز على الكيان الماثل في ذهن المتحدث، الذي يؤثر في اختيار الحجج وصياغتها. إن الجمهور في تصوري البلاغة الجديدة عند بيرلمان وزملائه ومقاربة الحجاج الجدلي عند إيميرن وزملائه يكاد يكون صيغة مشابهة للقارئ النموذجي عند إمبرتو إيكو؛ فهو تصور مجرَّد لكيان متخيّل، يُمثل موجهًا لفعل الكتابة/ المحاججة، ويمكن أن يكون له حضور نصي، وقد يتلاقى أو لا مع المتلقي الفعلي.

خاتمة: بحوث الجمهور في العلوم الإنسانية:

من الوحدة إلى التنوع

تبدو ظاهرة الجمهور في الوقت الراهن محورًا لاهتمام عدد متزايد من الحقول المعرفية؛ وبخاصة حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويمكن القول إن الجمهور قد أصبح في الوقت الراهن جزءًا من اهتمام معظم الدراسات التي تتناول أي مستوى من مستويات التواصل الإنساني. ويعكس تنوع هذه الحقول المعرفية تعدد المداخل التي تُقارب ظاهرة الجمهور، وتعدد الأبعاد التي تنطوي عليها ظاهرة الجمهور. ويعكس هذا الثراء المعرفي كينونة مزدوجة لبحوث

١- نفسه، ص ٦٠.

٢- من أهم الأعمال التي تقدمها: *Eemeren, F. H. van, & Grootendorst, R. (2004). A systematic theory of argumentation: The pragma-dialectical approach. Cambridge: Cambridge University Press.*

٣- انظر، *van Eemeren, Frans H. 2010. Strategic Maneuvering in Argumentative Discourse: Extending the Pragma-Dialectical Theory of Argumentation. Amsterdam: John Benjamins Pub Co.*، ص ١١٠.

الجمهور؛ فهي تتشارك هويّة عامة موحدة، تستمدها من التشارك في مادة بحثها، لكن هذه الهوية العامة تنطوي – في الوقت ذاته – على هامش تمايز وتنوع كبيرين، بحسب موضوعات البحث، وأسئلته، وغاياته. فثمة هوية جامعة تحتفي داخلها بمجال واسع من التنوعات. وقد رسم البحث الحالي صورة لهذه الهوية الجامعة الموحدة بين بحوث الجمهور، وحاول في الوقت ذاته رسم ملامح التنوع، وفحص تجلياته.

عرضتُ على مدار هذا البحث الاهتمامات الأكاديمية لثلاثة حقول معرفيَّة تُعنى ببحوث الجمهور، هي؛ دراسات القراءة والتلقي واستجابة القارئ؛ ودراسات التواصل، والبلاغة الكلاسيكية والمعاصرة. عَرَضتُ في كلٍّ منها لخصوصية المادة التي يدرسها؛ والأسئلة المعرفية التي يسعى للإجابة عنها؛ والغاية التي يرتجيها. وكان الهدف المحوري لاستعراضي لها هو تحديد ملامح التلاقي والتباين بين ما تُقدمه هذه الحقول الثلاثة، وحقل ناشئ هو بلاغة الجمهور.

يبرهن البحث على أن بلاغة الجمهور تسعى لحيازة فضاء بحثي خاصٍّ بها، يشمل مدونة الاستجابات اللغوية وغير اللغوية التي يُنتجها الجمهور في سياقات التواصل العمومي، ويُعنى باستكشاف العلاقة بين الخطابات والأداءات من ناحية، وتلك الاستجابات من ناحية أخرى. ويسعى إلى تعزيز قدرات الجمهور بوصفهم أفرادًا متعقلين في حالة جمهرة، باتجاه إنتاج استجابات بليغة؛ كاشفة ومقاومة لتلاعبات الخطاب. وعلى الرغم من أن مشروعية بلاغة الجمهور تُستمد من قدرتها على امتلاك فضائها البحثي المستقل، فإن تطورها وترسخها مرهونان بفعل مناقض هو تعزيز علاقات التبادل والتلاقح مع الفضاءات البحثية الأخرى وثيقة الصلة. وبخاصة تلك التي تقع في إطار الحقل الأوسع لبحوث الجمهور، وسوف تظل الحاجة قائمة لإنجاز بحوث أكثر تفصيلية لاستكشاف كيف يمكن أن تُفيد بلاغة الجمهور من هذه الحقول من جهة، وما الذي يمكنها أن تقدمه لها من جهة أخرى.

القسم التطبيقي